جامعة قطر
QATAR UNIVERSITY
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
COLLEGE OF SHARIA AND ISLAMIC STUDIES

بصائر المعرفة القرآنية (٣٤)

تنوير السور القرآنية (٢١)

مفصل تفسير

سورة الأعراف

موضوعها الكلي

القرآن بين الاتباع والتذكير والإنذار والتبصير

القرآن يبصر بالمعرفة العليا للمراحل التاريخية البشرية، وبخطر الملأ المستكبرين في تأسيس دار الفاسقين، وبقي من الفساد والأنقاض الإسرائيلية المؤسسة للانسلاخ من الأنوار الإلهية

الكتاب الخامس

تفسير وبصائر الآيات (٩٤-١٠٢)

السنن الاجتماعية الكونية العامة التي تحكم تاريخ الذرية الآدمية أمام دعوات الإصلاح النبوية وخطوات القدر التي تتعامل مع حركة البشر

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة / جامعة قطر

دار بصائر المعرفة

بصائر المعرفة القرآنية

قرآن يتلى لإنسانية ترقى

المفصل في تفسير

سورة الأعراف

بصائر المعرفة القرآنية

(٣٤)

تسوير السور القرآنية

(٢١)

المفصل في تفسير

سورة الأعراف

عمود السورة (موضوعها الكلي)

القرآن بين الاتباع والتذكير والإنذار والتبصير

القرآن يبصر بالمعرفة العليا للمراحل التاريخية البشرية، وبخطر الملأ المستكبرين في تأسيس دار الفاسقين، وبقي من الفساد والأنفاض الإسرائيلية المؤسسة للانسلاخ من الأنوار الإلهية

الكتاب الخامس

تفسير وبصائر الآيات (٩٤-١٠٢)

السنن الاجتماعية الكونية العامة التي تحكم تاريخ الذرية الآدمية أمام دعوات الإصلاح النبوية وخطوات القدر التي تتعامل مع حركة البشر

الأستاذ الدكتور

عبد السلام مقبل المجيدي

كلية الشريعة / جامعة قطر

دار بصائر المعرفة

الطبعة الأولى ١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٦ م

المفصل في تفسير

سورة الأعراف

الكتاب الخامس

أ.د/ عبد السلام بن مقبل المجيدي

أستاذ الدراسات القرآنية / كلية الشريعة/ جامعة قطر

خضع هذا الكتاب للتحكيم العلمي

راجعه

القسم العلمي بمؤسسة

بصائر المعرفة القرآنية

وحدة البحوث والدراسات

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية / جامعة قطر

يمكن لمن يحب أن يعيد طباعة هذا الكتاب بشرط ألا يتصرف في مضمونه، ويحبذ إعلام المؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية : ٢٠٢٦/١١٦

الترقيم الدولي ISBN : ٩٧٨٩٩٢٧٢٠٦٠١٦

طبعت بمطابع الراية

الطبعة الأولى

١٤٤٧ هـ – ٢٠٢٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/ عبد الله موسى محمد أبو المجد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجًا، وشرع لنا من كنوز بصائره سبيلًا ومنهجًا، والحمد له تعالى على ما أوضح لنا من بينات برهانه، وجلَّى لنا من واضحات فرقانه، وحبانا من هدايات كتابه، المنزل على خير خلقه وصفوة أحبابه، وخاتم رسله وأنبيائه صلوات الله عليه وسلامه، ثم أما بعد:

فإنَّ القرآن الكريم هو المَعين الصَّافي، والنَّبْع الضافي، ونور الله ﷻ الذي أنار به أرجاء الدنيا والفيافي، وكتابه الخالد، ومعجزته الكبرى، ومنهجه الإصلاحي الشامل، تحدَّى به رسولُ الله ﷺ الناسَ عامة، والعرب خاصة، حيث لم تعرف البشرية جمعاء أمة تقيم للكلمة أسواقًا ولياليَ وأيامًا مثل العرب، ومع ذلك فقد عجَزوا قاطبة عن معارضته، وسيظل هذا العجز أبد الآبدين ودهر الدَّاهِرين، مصداقاً لقول رب العالمين: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومع هذا الإعجاز القائم الدائم للدنيا بأسرها، وقيام الحجة به على جميع البشرية فاجرِها وبَرِّها، فإن عطاء القرآن يتجدَّد يومًا بعد يوم، ويأتينا الباحثون من كُلِّ حَدَب وصَوْب -مع اختلاف تخصصاتهم وتنوُّع مشاربهم- بكُلِّ جديد ومفيد بإذن الله تعالى.

وموسوعة البصائر التي يبدع في تحريرها أخونا الكريم سعادة الأستاذ الدكتور/ عبد السلام مقبل المجيدي موسوعة فريدة في بابها، فَيْنَانة بأزاهيرها.

ويُعَدُّ هذا: **(الجزء الخامس من "المفصل في تفسير سورة الأعراف وبصائرها")** حلقةً في عقد هذه الموسوعة المباركة، التي تركز على إبراز هدايات القرآن وبصائره بلغة معاصرة مناسبة، تجمع بين القديم والحديث، ولله الحمد والفضل والمنة، ومما تميزت به أيضًا ما يأتي:

أولًا: الموسوعة جديدة في بابها، فريدة في نوعها وتناولها، تُرَغِّبُ القارئ في البدء، وتساعده على المواصلة فيها، والإفادة منها بإذن الله تعالى.

ثانيًا: تجمع الموسوعة بين الأصالة والمعاصرة بأسلوب شيّق أخّاذ، يأخذك من عهد أبي جعفر الطبري، ثم يمر بك بعهد أبي حيان وابن كثير، وأخيرًا ينتهي بك في عصرنا الحديث مع صاحِبَي التحرير والتنوير والمنار.

ثالثًا: الموسوعة فيها جهد واضح بيّن، وعمل متضافر متكامل، وأسلوبها سلس سهل في متناول الكافة، إن شاء الله تعالى.

رابعًا: تتميز الموسوعة بوجود المشجرات العلمية، والرسوم التوضيحية التي تلخِّص المعنى بتناسق وتسلسل أخّاذ، منفردة بذلك عن أيِّ موسوعة تفسيرية ظهرت حتى الآن.

خامسًا: رَبْطُ الموسوعةِ بين تفسير الآيات القرآنية وتنزيلها على الواقع، الذي تحياه الأمة أفرادًا وشعوبًا، أشخاصًا ودُوَلًا، وهذا أهم ما ينبغي أن تتميز به كتاباتنا حول القرآن الكريم.

سادسًا: كما تتميز الموسوعة بِرَدِّها على الشبهات، وتفنيدها لكثير من الطعون المثارة حول بعض الآيات، وبخاصة تلك الطعون والشبهات التي تشيع في عصرنا الحاضر؛ قيامًا بواجب الانتصار لكلام العزيز الجبار.

سابعًا: صَوْغُ أكثر فقرات الموسوعة وَفْق طريقة السؤال والجواب، وذلك أنشط للقارئ، وأبعد به عن السآمة والملل، وأعظم تحقيقًا للأهداف التعليمية والتربوية للموسوعة.

... إلى غير ذلك من السمات والفضائل التي تميزت بها هذه الموسوعة عن غيرها من الموسوعات التفسيرية، والتي ستتجلى للقارئ الكريم بنفسها.

والله تعالى أسأل أن ينفع بهذه كاتبها وقارئها والمسلمين أجمعين في مشارق الأرض ومغاربها، وأن يتجاوز عما كان فيها من خلل أو سهو أو نسيان، وأن يتقبلها بقبول حسن، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، اللهم آمين.

أ. د/ عبد الله موسى محمد أبو المجد
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
بكلية العلوم الإسلامية والعربية للوافدين بالقاهرة/ جامعة الأزهر

الخريطة الكلية لسورة الأعراف

الموضوع الكلي

القرآن بين الاتباع والتذكير والإنذار والتبصير

القرآن يبصّر بالمعرفة العليا للمراحل التاريخية البشرية، وبخطر الملأ المستكبرين في تأسيس دار الفاسقين، ويقي من الفساد والانتفاض الإسرائيلية المؤسسة للانسلاخ من الأنوار الإلهية

1. **المقدمة:** القرآن كتاب الإنذار العالميّ من الأخطار الواقعة والمُتَوَقَّعة [الأعراف:١-٩]

2. **المحور الأول** البداية والنّهاية للرحلة الإنسانيَّة الكبرى في مسيرة الحياتين [الأعراف:١٠-٥٣]

3. **المحور الثاني** المعالم العامَّة التي تعرِّف بالله عز وجل، وتقتضي ضرورة اتباع المُنْزَل من رب العالمين [الأعراف: ٥٤-٥٨]

4. **المحور الثالث** أهمّ الدَّورات الحضاريَّة العُظمى والعهود التَّاريخيَّة الفاصلة التي قادت الإنسانيَّة قبل العهد الإسرائيليّ في التَّاريخ القديم [الأعراف٥٩-٩٣]

5. **المحور الرابع** السُّنَن الاجتماعية الكونية العامَّة التي تحكم تاريخ الذُّرية الآدمية أمام دعوات الإصلاح النبوية، وخطوات القَدَر التي تتعامل مع حركة البشر [الأعراف: ٩٤-١٠٢]

6. **المحور الخامس** العهد السادس من عهود الذرية الآدمية، ويمثل التاريخ الوسيط: العهد الإسرائيلي [الأعراف: ١٠٣-١٧١] وانقسم إلى ثلاثة فصول كبرى:

   - **فصل [1]** ظهور موسى عليه السلام، وعودة الإيمان بالله عز وجل، وبداية الانبعاث الإسرائيلي [الأعراف: ١٠٣-١٣٦].
   - **فصل [2]** عهد المواجهة ونهاية التَّاريخ الفرعونيّ [الأعراف: ١٢٧-١٣٧].
   - **فصل [3]** عهد التمكين الإسرائيلي: أهم مظاهر نقض الإسرائيليين للعهد الإلهي [الأعراف: ١٣٨-١٧١].

7. **المحور السادس** العهدُ الإنسانيُّ الحديثُ والأخيرُ، ويُظهِر الله عز وجل فيه آيات القرآن التي جاء بها النبي الخاتم ﷺ لتمثِّل للعالم مفاتح فَهْمِ الحياة، وتقدِّم للبشرية دوافع الاهتداء [الأعراف: ١٧٢-١٩٨].

8. **الخاتمة** آداب التَّعامل مع الكتاب الذي يحمي الإنسانيَّة من الأخطار الظاهرة والخفيَّة [الأعراف: ١٩٩-٢٠٦].

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

عمود سورة الأعراف (موضوعها الكلي) الذي دارت حوله محاور السورة

القرآن بين الاتباع والتذكير والإنذار والتبصير

القرآن يبصر بالمعرفة العليا للمراحل التاريخية البشرية، وبخطر الملأ المستكبرين في تأسيس دار الفاسقين، ويقي من الفساد والانتقاض الإسرائيلية المؤسسة للانسلاخ من الأنوار الإلهية

المحور الرابع

السنن الاجتماعية الكونية العامة التي تحكم الذرية الآدمية أمام دعوات الإصلاح النبوية وخطوات القدر التي تتعامل مع حركة البشر

[الأعراف:٩٤-١٠٢]

المحور الرابع

السُّنَن الاجتماعية الكونية العامَّة التي تحكم تاريخ الذُّرية الآدمية أمام دعوات الإصلاح النبوية، وخطوات القَدَر التي تتعامل مع حركة البشر

[الأعراف: ٩٤-١٠٢]

المناسبة والاتصال:

كان المحور الثالث من محاور سورة الأعراف قد فصَّل لنا أهمَّ الحضارات التي عاشت في التاريخ القديم للإنسانية قبل العهد الإسرائيلي، وظهر هذا التفصيل في الآيات (٥٩-٩٣) من هذه السورة، وظهر لنا فيه الدورات الحضارية الضخمة التي حدثت حينها، وهي:

الدورة الأولى: حضارة دولة قوم نوحٍ عليه السلام، وفيه مثَّل نوحٌ عليه السلام القيادة الأولى للبشرية حيث واجه فساد الفكر الذي تمثَّل بالشرك في الأرض، وإفساد الحياة بالتمييز العنصري، وقد جاء هذا التفصيل في الآيات (٥٩-٦٤) من هذه السورة.

والدورة الثانية: حضارة دولة عاد، وفيه مثَّل هود عليه السلام القيادة الثانية للذرية الآدمية في مواجهة الإفساد في الأرض، وقد جاء هذا التفصيل في الآيات (٦٥-٧٢) من هذه السورة.

والدورة الثالثة: حضارة دولة ثمود، وفيه تبرز القيادة الثالثة للذرية الآدمية في مواجهة الإفساد في الأرض، وهي قيادة صالح عليه السلام ، وقد جاء هذا التفصيل في الآيات (٧٣-٧٩) من هذه السورة.

والدورة الرابعة: حضارة دولة قوم لوط عليه السلام ، إذ قام لوط عليه السلام بمواجهة نوع من أخطر أنواع الإفساد في الأرض، وهو الفساد الخُلُقي الذي يدمر البشرية بالشهوات الشاذَّة المحرَّمة، وقد جاء هذا التفصيل في الآيات (٨٠- ٨٤) من هذه السورة.

والدورة الخامسة: حضارة دولة مَدْيَن، إذ برز شعيب عليه السلام ليمثِّل القيادة الخامسة للذرية الآدمية في مواجهة الإفساد الاقتصادي والأخلاقي، وقد جاء هذا التفصيل في الآيات (٨٥- ٩٣) من هذه السورة.

فإذا كان المحور الثالث قد تناول هذه العهود الخمسة الفاصلة في تاريخ البشرية، فما المحور الرابع من هذه السورة، وما الموضوع التي تحدث عنه؟

الجواب:

المحور الرابع: السُّنَن الاجتماعية الكونية العامَّة التي تحكم تاريخ الذُّرية الآدمية أمام دعوات الإصلاح النبوية، وخطوات القَدَر التي تتعامل مع حركة البشر، وقد جاء هذا التفصيل في الآيات (٩٤-١٠٢) من هذه السورة.

وهنا نسأل: كيف بينت الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ [الأعراف: ٩٤] قوة الاتصال بين هذا المحور وما قبله؟ وما المعاني التي أفصحت هذه الواو عنها؟

الجواب:

الواوُ في هذه الآية تظهر قوة الاتصال، فقد عطفت هذه الآيات عَلى المحور السابق كلّه، والذي كانت نهايته قصة حضارة مدين التي بدايتها قول ربنا: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ [الأعراف: ٨٥]، فعطفت الواو سُنَنًا عامة تتعلق بكل الحضارات التي يسميها الله ﷻ (قُرى).

وبذلك فإن هذه الواو الاتصالية يصح أن يقال فيها ما قرَّره ابن عاشور رحمه الله من أنها: «عَطَفَتِ الواوُ جُمْلَةَ ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ [الأعراف: ٩٤] عَلَى جُمْلَةِ ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ [الأعراف: ٨٥] عَطْفَ الأَعَمّ على الأَخَصّ؛ لِأَنَّ مَا ذُكِرَ مِنَ الْقَصَصِ ابْتِدَاءً مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩] كُلُّهُ، الْقَصْدُ مِنْهُ الْعِبْرَةُ بِالْأُمَمِ الْخَالِيَةِ موعظة لِكُفَّارِ الْعَرَبِ، فَلَمَّا تَلَا عَلَيْهِمْ قَصَصَ خَمْسِ أُمَمٍ، جَاءَ الْآنَ بِحُكْمٍ كُلِّيٍّ يَعُمُّ سَائِرَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ...وَهَذِهِ الْجُمَلُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: ١٠٣] كَالْمُعْتَرِضَةِ بَيْنَ الْقَصَصِ، لِلتَّنْبِيهِ عَلَى مَوْقِعِ الْمَوْعِظَةِ، وَذَلِكَ هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ تِلْكَ الْقَصَصِ»[١].

ولكن الأصح ألا نجعلها بمنزلة جملة اعتراضية فحسب، فوصفها بذلك يضعف وظيفتها وهدفها، ولا يظهر لي أن الإمام يريد ذلك، ولكن الالتزام بالمصطلحات البلاغية المقررة جعلته يعبِّر هذا التعبير.

ويظهر أن الذي ينبغي أن نقول: هذه الواو عطفت محورًا جديدًا جليًّا على المحور السابق، فالسابق لذكر دورات حضارية خمس كانت أساسية في التاريخ القديم، وهذا المحور لذكر الدورات

---

(١) التحرير والتنوير (٩/١٦)

الحضارية المتعددة التي لم يذكر الله تفاصيل قصصها في هذه السورة، وبيان السنن العامة التي لا يمكن أن تخرج عنها، ولا أن تكون بِدْعًا فيها.

فبعد استكمال تلك العهود، و انتهاء تلك الدورات الحضارية العامة دخلنا إلى آياتٍ لا تحدثنا عن قصة بعينها، ولكنها تُظهر لنا توجيهات عامة تتضمن ذكر سنن الله ﷻ في قيام الحضارات وانهيارها.

وهنا تظهر: المناسبة والاتصال، ففي آيات المحور الثالث ذكر الله ﷻ الدورات الحضارية الخمس التي تمثل أهم دورات التاريخ الأقدم للذرية الآدمية، وبعد آيات هذا المحور ذكر الله ﷻ الدورة الحضارية الفرعونية، والدورة التاريخية الإسرائيلية، وبذلك نرى أن المعرفة القرآنية في سورة الأعراف قَسَّمت تاريخ الذرية الآدمية إلى خمسة عهود كبرى:

العهد الأول: عهد بداية التاريخ الإنساني، وبزوغ الحضارة الإنسانية: حيث ذكر الله ﷻ تهيئة الأرض لتتمكن فيها الذرية الآدمية، وذكر بداية الوجود الإنساني بخلق آدم عليه السلام، والمعركة الأولى بين البشرية وإبليس.

العهد الثاني: عهد التاريخ القديم للذرية الآدمية: وفيه ذكر الله ﷻ أبرز خمس حضارات وجدت فيه، وهي: حضارة قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، ومدين.

العهد الثالث: عهد بقية الأمم: والتي جاءت إما موازية للحضارات الخمس الكبرى، أو جاءت بعدها، وقد ذكرها الله ﷻ هنا ذكرًا إجماليًّا.

فذكر الله ﷻ هذا المحور الرابع ليكون قنطرة وجسرًا للانتقال بين العهدين الكبيرين: عهد التاريخ القديم للذرية الآدمية، وعهد الحضارة الإسرائيلية.

وفي هذا المحور ذكر الله ﷻ أهم السنن الإلهية التي تلخِّص ما يحدث بين المرسلين وأممهم، فهذه السنن تلخِّص التاريخ الكبير لكثير من الأمم التي لم تُذْكر في القرآن المجيد، ولم تذكر رسلهم، سواء أجاءت موازية للحضارات الخمس الكبرى، أم قريبة منها، أم بعدها.

العهد الرابع: العهد الأوسط في تاريخ البشرية: وفيه ذكر الله الحضارة الفرعونية، والتاريخ الإسرائيلي، وكيف واجه موسى عليه السلام إفساد الفراعنة والإسرائيليين معًا.

العهد الخامس والأخير: العهد الحديث في تاريخ البشرية: وهنا تذكر لنا بصائر المعرفة القرآنية عهد خاتم الأنبياء ﷺ، ووراثة الصالحين.

وقد فصَّل الله ﷻ لنا العهد الأول والعهد الثاني في المحاور الثلاثة السابقة، وفي هذا المحور الرابع يعطف الله ﷻ ذكر السنن الإجمالية التي تعتري الحضارات والأمم، وتتكرر في التاريخ بين دعوات إصلاح الأرض من جهة، والملأ المفسدين وأتباعهم من جهة أخرى؛ وهذا العطف يبيِّن اتصالًا قويًا، ويحقق أهدافًا متعددة منها:

الهدف الأول: أن ذكر أبرز قصص الذرية الآدمية ليس للمتعة الفارغة، والتفكه المجرد بل لاستلهام العبرة، والنظر في السنن الحيوية التي تحكم تاريخ الذرية الآدمية، فلعل ذلك يكون سببًا في إصلاح الحاضر والمستقبل.

بصيرة: تتكرر مشاهد قيام دول وحضارات متعددة، وتتكرر مشاهد الرحمة الإلهية بإرسال الرسل، وتعود مجدَّدًا مشاهد إجرام الملأ المستكبرين و أتباعهم، ومشاهد الصراع بين القبيل الشيطاني والحزب الإيماني، وهذه المشاهد التاريخية تبين السُّنن المُسْتَمِرَّة، والعادات المُسْتَقِرَّة لأحوال الحضارات والصراع بين دعاة الخير وقوى الملأ المستكبرين الذين ينصرون الشيطان وقبيله.

وهذا الإجمال في هذا المحور وضع لنا الضَّوابِط والقَواعِد الكُلِّيَّة التي تتكرر في التاريخ لِتَنْطَبِقَ عَلى الجُزْئِيَّاتِ، وسبب ذَلِكَ أن الله ﷻ أراد أن يكون عندنا الِاسْتِبْصارُ بِما هو نافِعٌ أوْ ضارٌّ في الحياة، وألا نقع في الِاغْتِرارِ بِأحْوالِ المُسْتَدْرَجِينَ الأشْرارِ كما يقرر البقاعي ﷺ[1].

الهدف الثاني: أن يبين الله ﷻ أن ما سبق كان أمثلة لأبرز الحضارات العالمية التي مرت بها الذرية الآدمية، وأن هناك حضاراتٍ أخرى لا داعي لذكرها لأن جوهر أحداثها متشابهة، فكأنه يقول: دونكم السُّنَنَ العامة التي تمرُّ بها كل الحضارات مع رسالات ربها، وبما أنها عطفت هذا المحور على ما قبلها؛ فإنها تمنحنا بيانًا قويًّا عظيمًا يوجز لنا أهمَّ القوانين العامة التي تحكم التاريخ البشري كله.

ويلاحظ السيد محمد رشيد رضا ﷺ أن من أهم عادات القرآن الحكيم وسنن الاتصال في آياته "أَنَّهُ يُبَيِّنُ الْعَقَائِدَ بِدَلَائِلِهَا، وَالْأَحْكَامَ مُؤَيَّدَةٌ بِحِكَمِهَا وَعِلَلِهَا، وَالْقَصَصَ مَقْرُونَةٌ بِوُجُوهِ الْعِبْرَةِ وَالْمَوْعِظَةِ بِهَا وَسُنَنِ الِاجْتِمَاعِ فِيهَا، كَمَا تَرَى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ التِّسْعَةِ الَّتِي قَفَّى بِهَا عَلَى قَصَصِ الْقَوْمِ الْمُهْلِكِينَ"[2].

(١) ينظر. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ١٠).

(٢) تفسير المنار (٩/ ١٤).

المحور الرابع

السُّنَن الاجتماعية الكونية العامَّة التي تحكم تاريخ الذُّرية الآدمية أمام دعوات الإصلاح النبوية [الأعراف:٩٤-١٠٢]

سُنَّة (١): إرسال الرسل إلى الحضارات المختلفة ليقيموا الحجة عليهم، وليبينوا أهداف خلقهم ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ [الأعراف: ٩٤]

سُنَّة (٢): كُفْرُ الملأ المستكبرين ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأعراف: ٩٤]

سُنَّة (٣): سُنَّة أخذِ الكافرين بالبأساء والضراء: إذ يغير الله ﷻ عليهم الأحوال، وتنتابهم أنواعٌ مختلفة من الشدائد: ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤]

سُنَّة (٤): سُنَّة الإمهال وتَجَدُّدِ الرخاء: يصيب تلك الحضارات عذابٌ متقطع غير مدمر كليًّا ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: ٩٥]

سُنَّة (٥): سُنَّة العفو التكاثري الذي يؤدي إلى نسيان الأحداث السابقة ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ [الأعراف: ٩٥]

سُنَّة (٦): سُنَّة التفسير المنحرف ﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف: ٩٥]

سُنَّة (٧): سُنَّة العقوبة الماحقة المستأصلة: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥]

سُنَّة (٨): سُنَّة العدل: فأهم عوامل التنمية وإنقاذ الحضارات: الإيمان والتقوى ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ ...﴾ [الأعراف: ٩٦]

سُنَّة (٩): الأمن من مكر الله: أعظم علامات الخسارة الذاتية والحضارية ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝٩٧ ...﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩]

سُنَّة (١٠): تتابع الذنوب يؤدي إلى طبع القلوب ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ ...﴾ [الأعراف: ١٠٠]

سُنَّة (١١): سُنَّة النِّسيان المُدَمِّر: فتميل الأمم إلى نسيان التاريخ، وتصر على تطبيع عاداتها مع إغفال أحداثه ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ ...﴾ [الأعراف: ١٠١]

سُنَّة (١٢): خيانة العهد تقتضي الوقوع في أَسْرِ الشيطان وقبيله ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ ...﴾ [الأعراف: ١٠٢]

ولأن هذا المحور يتكون من السُّنَن الاجتماعية الحاكمة للتاريخ البشري لا بد أن نسأل: ما السُّنَّة الأولى التي تبرزلنا ضمن هذه السنن الاجتماعية؟

الجواب:

السُّنَّة الأولى: إرسال الرسل إلى الحضارات المختلفة (القُرى في الاصطلاح القرآني):

فيرسل الله ﷻ رسلًا منهم ليقيموا الحجة عليهم، وليبينوا أهداف خلقهم ووجودهم، ويبصِّرنا بهذه السنة الدائمة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأعراف: ٩٤].

وهنا نسأل: كيف أفادنا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأعراف: ٩٤] **الحديث عن ملخص عام للتاريخ البشري؟**

الجواب: فهمنا ذلك ضمنًا؛ لأن كلمة ﴿مَا﴾ نافية، وكلمة ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ تتكون من كلمتين: (أرسل) التي تعني الإيفاد المترسِّل لهدفٍ محدد، و(نا) هنا دالة على التعظيم أيْ: أي نقوم بإيفاد الرسل بِما لَنا مِنَ العَظَمَةِ، حيث نأمر من شئنا من ملائكتنا؛ ليبلِّغوا من اخترناه من أنبيائنا، فيتولى تبليغ الوحي إلى ذرية آدم في حضارات مختلفة هي التي وصفها الله ﷻ بالقرى، ثم جاءت ﴿إِلَّآ﴾ الاستثنائية، ولماذا جاءت؟

لتحصر أهم الأحداث التي تقع عندما يرسل الله ﷻ الأنبياء عليهم السلام؛ لتصحيح المسيرة الإنسانية، وإصلاح فساد الذرية الآدمية.

وهذا التعبير ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ [الأعراف: ٩٤] لا يدل على أن كلَّ قرية لا بد أن يأتيها رسول، بل يدل على الأحداث التي تقع بعد وصول الرسول، ولكننا نعلم من آياتٍ أخرى أنه لا تخلو حضارة من رسول كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤].

فعَلِمْنا أن الأمم لا بد أن يأتيها رسل، ثم وصفت لنا هذه الآية السُّنن التي تحدث بعد ذلك.

وهنا نسأل: لماذا استعمل التعبير القرآني لفظة ﴿قَرۡيَةٖ﴾ بدلًا من (مدينة) أو حضارة؟ وكيف عرفنا أن هذه السنن تتكلم عن الحضارات الإنسانية مع أن المذكور في هذه الآية ﴿قَرۡيَةٖ﴾؟

الجواب: سبب هذا السؤال هو الفجوة الكبيرة بين المصطلح القرآني الذي نزل على قوم يفهمونه بلغتهم، وبين استعمالنا المعاصر بعضَ الألفاظ، فالتعبير بكلمة ﴿قَرْيَةٍ﴾ عن الأمة والحضارة أفادنا عددًا من المفاهيم العظيمة:

المفهوم الأول: القُرى تعبّر عن العواصم الكبيرة، أو عن الحضارات أو الدول التي تضم المدن المتعددة، فالقرى جمع قرية من (قَرِيَ)[1] سميت قرية لاجتماع الناس فيها، فهي المِصْرُ الجامِعُ، وتطلق في القرآن المجيد على المدينة العظيمة، أو الحضارة الكبيرة التي تضم عدة مدن، وتطلق على كلِّ مَكانٍ اتَّصَلَتْ بِهِ الأبْنيةُ واتُّخِذَ قَرارًا، وتَقَعُ على المُدُنِ وغيرِها.

ونحن نجد الاستعمال القرآني يطلق القرية على المدينة في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف:٨٢]، وقد سمَّاها الله ﷻ المدينة في السورة ذاتها، فقال: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [يوسف: ٣٠]، فالقرية هي الحضارة المدنية العظيمة وليس كما هو إطلاقها في العرف المتأخر على المحلة الريفية الصغيرة، بل هي الأرض الممتدة التي يوجد فيها الْأَبْنِيَة الَّتِي تجمع النَّاس، وتُتَبادل فيها المصالح والمنافع، وتتكون فيها مصادر القوة والثروة، ويحوطها الأمن ويظلّلها الاستقرار، وقد كنت أظنني انفردت بهذا التفصيل لكنني وجدت بعد كتابتي له الإمام الرازي ﷺ يشير إلى ذلك، فيقول: "وإنَّما ذَكَرَ القَرْيَةَ؛ لِأنَّها مُجْتَمَعُ القَوْمِ الَّذِينَ إلَيْهِمْ يُبْعَثُ الرُّسُلُ، ويَدْخُلُ تَحْتَ هَذا اللَّفْظِ المَدِينَةُ؛ لِأنَّها مُجْتَمَعُ الأقْوامِ"[2].

المفهوم الثاني: الرسل تُرْسَل إلى المدن العامرة المستقرة التي يُطلِق عليها القرآن القرى لا إلى البوادي؛ لأن البوادي تظل محتاجة للعواصم والقرى تابعة لها، وذلك يدل على أن ضرورة التركيز على العواصم والأطراف المؤثرة التي تكون مُنطلَقًا إلى غيرها، ويذكر ابن عاشور ﷺ أن تَخْصِيصَ القُرى "بِإرْسالِ الرُّسُلِ فِيها دُونَ البَوادِي كَما أشارَتْ إلَيْهِ هَذِهِ الآيَةُ وغَيْرُها مِن آيِ القُرْآنِ، وشَهِدَ بِهِ تارِيخُ الأدْيانِ، يُنْبِئُ أنَّ مُرادَ اللَّهِ -تَعالى- مِن إرْسالِ الرُّسُلِ هو بَثُّ الصَّلاحِ لِأصْحابِ الحَضارَةِ الَّتِي

(١) لسان العرب (١٥/ ١٧٧)، تاج العروس من جواهر القاموس(٣٩/ ٢٨٢).
(٢) تفسير الرازي (١٤/ ٣٢١).

يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا الخَلَلُ بِسَبَبِ اجْتِماعِ الأَصْنافِ المُخْتَلِفَةِ، وأَنَّ أَهْلَ البَوادِي لا يَخْلُونَ عَنِ الِانْحِيازِ إلى القُرى والإِيواءِ في حاجاتِهِمُ المَدَنِيَّةِ إلى القُرى القَرِيبَةِ"[١].

وقد ذكروا أن بعض الرسل جاءت إلى البوادي مثل ما ذكروا عن خالِد بْن سِنانٍ، وأنه كان نَبِيًّا في بَنِي عَبْسٍ[٢]، وغيره، ولكن لا يوجد عندنا ما يؤكد ذلك من ناحية النقل.

لماذا تعدَّى فعل الإرسال بحرف الجر ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ [الأعراف: ٩٤]، ولم يَتعدَّ بحرف الجر (إلى) مع أنه هو المعتاد في فعل الإرسال؟

الجواب: عُدِيَّ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ بِـ ﴿فِي﴾ دُونَ (إلى) لِأَنَّ المُرادَ بِالقَرْيَةِ حَقِيقَتُها[٣]، وهي لا يُرْسَلُ إلَيْها وإنَّما يُرْسَلُ فِيها إلى أهْلِها، فالإرسال منها إليها، ويكون التَّقْدِيرُ: وما أرْسَلْنا في قَرْيَةٍ مِن نَبِي إلى أهْلِها، وهذا الحرف البديع في موضعه يبين الامتياز الكبير الذي يتبوأه الرسول في أداء رسالة ربه عندما يكون من أهل تلك القرية لا من غيرها، وهذا التعبير كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾ [القصص: ٥٩]، وقريب من ذلك قَوْله تَعالى: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٣]، فهو يدل على مقدار بثه لعُيونه ومخابراته في المدائن المختلفة التابعة له، كما يدل هذا التعبير على قوة الولاء والطاعة له من قبل ولاته الذين عَيَّنهم على كل مدينة، فقد وَجَّه الأمر إليهم أي أرسل إليهم، فأنفذوا الأمر في أتباعهم من الشرطة وغيرهم لتنفيذ الأمر الفرعوني.

وكلمة ﴿مِّن﴾ صلةٌ لِلتَّنْصِيصِ عَلى عُمُومِ الإرسال المُسْتَفادِ مِن وُقُوعِ النَّكِرَةِ في سِياقِ النَّفْيِ[٤].

عرفنا السُّنَّة الأولى التي تتحقق في كل المجتمعات، وكل الحضارات، وهي سُنَّة إرسال الرسل، إذ يرسل الله ﷻ إلى الحضارات المختلفة رسلًا منهم ليقيموا الحجة عليهم، وليُبَيِّنُوا أهداف خلقهم ووجودهم، فما السُّنَّة الثانية؟

الجواب:

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ١٦).

(٢) ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (١/٢٥٦).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ١٦).

(٤) التحرير والتنوير (٩/ ١٦).

السنة الثانية: كُفْرُ الملأ المستكبرين: إذ يأْبَى الملأ المستكبرون اتباع النبيِّ في كل حضارة:

ويبصرنا بهذا المحذوف المعلوم في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأعراف: ٩٤] فهناك محذوف نعلمه من السياق.

ويكون التقدير: وما أرسلنا في قرية من نبي إلا كفر به ملأ مستكبرون من قومه، وحملوا غيرهم على ذلك، فيشجعونهم على الكفر، ويستعملون الترغيب والترهيب لأجل أن يبقى الناس على الجاهلية.

قال الماتريدي رحمه الله: «في الآية إضمار -والله أعلم- من وجهين:

أحدهما: قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ فكذبوه، إلا أخذنا أهلها المكذبين له بالبأساء، ... ولا يحتمل أن يرسل إليهم رسولًا ثم يأخذهم من غير أن كان منهم رد وتكذيب له.

والثاني: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٍ﴾ أهلكناها. ﴿مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا﴾ قبل الهلاك ﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤﴾، ثم لم يأخذ الله عز وجل قومًا بالهلاك قبل أن يبعث رسولًا إليهم، وقبل: أن يغيِّرُوا هم ما أنعم عليهم بأنفسهم»[1].

وكلمة ﴿نَّبِيٍّ﴾ تبصرنا بعلو مرتبة هذا الرجل المختار ليكون نبيًا، فهي مشتقة من النَّبَاوة أي المكان المرتفع، أو من النبأ، وهو الخبر العظيم، وخففت الهمزة، فأُبدلت ألفًا: نبا، أو ياء في: نبي، وبعد أن يمتنع الملأ المستكبرون عن الإيمان، ويحشدون الجمهور ليكفروا تمر الأيام والأوقات، وهنا تأتي السنة الثالثة:

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة» (٤/٥٠٨).

السنة الثالثة: سُنَّة أخذ الكافرين -وربما من جاورهم- بالبأساء والضراء: إذ يغير الله ﷻ عليهم الأحوال، وتنتابهم أنواعٌ مختلفة من الأزمات والنكبات عسى أن يدفعهم ذلك للتضرع بين يدي ربهم:

ويبصرنا بهذه السنة الدائمة قوله: ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤﴾ [الأعراف: ٩٤]، فتُلَخِّص لنا الآية كل التفاصيل التاريخية التي تمر بها كل الأمم، وذكر الله ﷻ لنا من هذه التفاصيل ما نحتاج إلى سماعه عن تاريخ هذه الحضارات، وتلك الأمم، فإنْ حَشَد الملأ المستكبرون الناسَ؛ ليكفروا برسالة كلِّ أمين مأمون من الأنبياء، فإنَّ الله ﷻ يبدِّل عليهم الأحوال، فبعد حالة الرخاء التي كانت قبل مجيء الأنبياء، تأتيهم حالتا البأساء والضراء، وذلك لتكون علامة مساعدة توقظ المستكبرين والغافلين لعلهم يضرعون.

وهنا تعلم لماذا جاء هذا المحور ليمثِّل الجسر الذي نعبر منه إلى المحور الكبير القادم؟ ولكنك ستسأل وكيف ذلك؟ و أين علاقات المناسبات والاتصال بالنسبة للمحور القادم؟

أجيبك بأن سرد ما حدث للقرى (الحضارات السابقة) اتخذ طابع الإيجاز، لكن هذه السُّنَّة بعينها رأينا واقعها التطبيقي في قصة موسى عليه السلام، ونهضة بني إسرائيل، والحضارة الفرعونية حيث بَيَّن الله وقوع هذه السنة للفريقين حول موسى عليه السلام:

فوقعت لقومه المستضعفين ليصبروا وليطبقوا السنن المنجية من الاستضعاف، فقال الله عن ذلك: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

ووقعت لآل فرعون المستكبرين، وقال الله ﷻ عنها: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّن ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وهنا نسأل: كيف جاء قول ربنا: ﴿أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ مباشرة بعد ذكر الإرسال؟ ولماذا يكثر استعمال كلمة (أخذ) في العقوبات؟

الجواب: الآية فِيها حَذْفٌ وإضْمارٌ، والتَّقْدِيرُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ إلا دعا أهلها إلى ما فيه خيرُهم، فكذبوه، فعاقبناهم، فأخَذْنا أهْلَها بِالبَأْساءِ والضَّرّاءِ لَعَلَّهم يُدْرِكون مصالحهم الحقيقية، فيتذللون لربهم، ويتركون الاستكبار والغرور.

وهنا يظهر جمال كلمة ﴿أَخَذْنَا﴾ فالأخذ يدل على تناول الشيء وحَوْزِه وَجَبْيِه وَجَمْعِه[1]، وذلك تارةً بالتناول نحو: قوله تعالى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٩]، وتارةً بالقهر نحو قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧].

والسياق هنا سياق عقوبةٍ شديدة عارضة، وليست مستأصلة، فيقتضي:

أن يكون الأخذ مستوليًا مستحوذًا يحوز المأخوذين، ويقبض عليهم قبضًا معنويًا وماديًا محكمًا، ونشاهد هذه الصورة للأخذ في قوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، فأخذُ الحِذر معنويٌ، وأخذُ الأسلحة ماديٌ يقتضي قَبْضها بإحكام، والاستعداد لأيّ طارئ، ولأنَّ الأخذ عقاب فإنه يقترن بالقهر الشديد.

فقوله: ﴿أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي سلطنا عليهم من عندنا البأساء والضراء يتناولانهم تناولًا كما يتناول الآخذ طعامه، أو يقبض على ماله، أو يتناول ببطش يديه طائرًا اصطاده، وهذا الأخذ عبارة عن عقوبة جزئية حقيقتها أن تكون تَجْرِبَةً وَتَرْبِيَةً نَافِعَةً[2] لو اعتبر بها المأخوذون.

وهنا نسأل: فما معنى قول ربنا ﷻ: ﴿أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾؟ ولماذا اختيار هاتين الكلمتين في التعبير عن تغير الأحوال الحضارية العامة للقُرى من حالة الرخاء المستديم إلى حالة الشدة المتقطعة؟

الجواب: هاتان كلمتان تصوران واقع هاتين العقوبتين الجزئيتين بدقةٍ شديدة:

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٦٨/١).

(٢) ينظر: تفسير المنار (٩/ ١٤).

فالبأساء: مشتقة من كلمة (بَأْس) [١]، وهي تدل على الشِّدَّة العظيمة، والقوة الكبيرة في أمرٍ محدَّد مكروه من جهة من وقع عليه البأس، ومحمود من جهة صاحب البأس، ومنه وصف الله ﷻ الحديد في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، أي قوة كبيرة تحدث المكروه في العدو، وتستكره صاحبها ليصل إلى أسرارها، والإفادة من صناعتها على الوجوه المختلفة القوية المؤثرة؛ ويقال للحرب: (حين البأس)، وذلك للشدة التي تحتاج إليها الأطراف فيها، وَيقال: رَجُلٌ ذُو بَأْسٍ وَبَئِيسٌ أَيْ: شُجَاعٌ، وَقَدْ بَؤُسَ (ككَرُم) بَأْسًا فهو بئيس: شجاع (أو شديد)، وبَأَسَ بَأْسًا، ومنه قال البراءُ ﷺ: «... كُنَّا واللهِ إذا احمَرَّ البأسُ نَتَّقِي به ، وإن الشُّجاع منَّا لَلَّذي يُحَاذي به، يعني النَّبيَّ ﷺ»[٢]، فالشجاعة والإقدام كلاهما يقال له: بأس لأنهما تتضمنان القوة الشديدة التي يُكرَه فيها الجسد على ما يؤلمه، والكراهة هنا تزيد من مدح ذي البأس؛ إذ يُكرِه نفسه على ما لا يقدر عليه غيره.

ومن ذلك أن يقال للشدة في العيش: البؤس، فتقول: بَؤُسَ فلان، فالْبُؤْسُ: الشِّدَّةُ فِي الْعَيْشِ، البائس: الرجل النازل به بَلِيَّة أو عُدْم يُرْحَم لما به كما في قوله: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]، وبَئِس (كتعب): اشتدت حاجته.

وصار إطلاق البأس في العرف على القوة المحمودة، والبؤس على الحالة المتعبة الشديدة، والله ﷻ: «يكره البُؤْسَ والتَّبَاؤُسَ»[٣] أي إظهار الألم من شدة العيش تذلُّلًا أمام الآخرين وتضجُّرًا لا تأمُّلًا وتدبيرًا للتغيير، ولا تذللًا أمام أرحم الراحمين، وَالْمُبْتَئِسُ: الْمُفْتَعِلُ مِنَ الْكَرَاهَةِ وَالْحُزْنِ. قَالَ حسان بن ثابت ﷺ:

مَا يَقْسِمُ اللَّهُ أَقْبَلْ غَيْرَ مُبْتَئِسٍ مِنْهُ وَأَقْعُدْ كَرِيمًا نَاعِمَ الْبَالِ[٤]

فمعنى البأساء هنا: العيش البائس البئيس الشديد الذي كثرت معاناته، وتعبه، وشَظَفت فيه المعيشة، وضاقت، وصحبه الفقر والجوع والحاجة إلى الغير، فيذهب استقلال الإنسان أو الدول

(١) مقاييس اللغة (١/ ٣٢٨)، المفردات في غريب القرآن (ص١٥٣)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ١١٩).

(٢) مسلم (١٧٧٦).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥٧٩١)، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٣٢/٥) : "ورواه الطبراني، ورجاله ثقات"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٣/ ٣١٠).

(٤) هذا البيت لحسان بن ثابت ﷺ، في ديوانه (ص: ١٩٢).

بلجوئهم إلى الآخرين، وبإظهار احتياجهم عند الناس أو المنظمات أو الدول، فيقترضون الأموال لِسَدِّ الميزانية الفردية أو الحكومية أو الخاصة أو العامة، وربما تتسلط عليهم الأحوال السيئة، ومن أمثلة البأْساء: الأزمات الاقتصادية.

> **بصيرة: تتعجب أن بعض الدول غنية ولكنها تلجأ إلى الاقتراض، ولا يظهر غناها في جميع أفرادها، بل تجد نسبةً لا بأس بها من أفراد الدول ربما لا تجد القُوت الضروري من المسكن والمأكل والمشرب، والاحتياجات الأساسية.**

والآن أدركنا معنى كلمة ﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾، فما معنى كلمة ﴿ٱلضَّرَّآءِ﴾؟

الجواب: الضراء:

مشتقة من (الضَّرُّ) يُقَالُ: ضَرَّهُ يَضُرُّهُ ضَرًّا، فالضُّرُّ: ذهاب النفع، وسوءُ الحال في أسباب دُنياهم بجميع أنواعه:

١) الجسدية: بمرض أو ذهاب انتفاع بحاسة أو عضو، أو ألم حدث لخلل في الوظائف العضوية، أو هجوم خارجي من جراثيم مثلًا.

٢) المالية: لحلول الجدب، وخلل الاقتصاد وذهابه.

٣) الاجتماعية: ويتجلى في المقاطعة والحصار من الآخرين، وغياب اللقاءات التي تطمئن بها القلوب وترتاح لها النفوس، بخاصة بين الأهل والجيران، كما يشمل ذهاب الرئاسة وضعف الجاه والنفوذ لمن كان يتمتع بهما.

٤) النفسية: بالشعور بالألم والضيق النفسي.

فالضرّاء هي: الحالة العامة التي سيطرت فيها أنواع الضر: الجسدية، والاجتماعية، والمعيشية، فيظهر فيها الضيق والنقص في الأموال والأنفس، والجدب والقحط، والآلام الجسدية، حتى لو دققت في حال الناس، لوجدت أن عدم الزواج يُعَدُّ عذابًا كبيرًا للنساء والرجال.

وهنا نسأل: لماذا جاءت كلمة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤]؟

الجواب: لأن هذه الكلمة تحدد الغاية التي لأجلها أخذهم الله بالبأساء والضراء، وتُبرز الهدف من ذلك، وتعلن حكمة الله من تقليبه أوضاع الحياة، فالله ﷻ لا يريد بإيقاع الناس في البأساء والضراء أن يعذب عباده، فهو الذي قال: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧]، وقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، وقال: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٨-١٤٩].

فجاءت كلمة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لتظهر هذه الحكمة العظيمة:

إذ يرسل الله ﷻ البأساء والضراء، فينزل عليهم الشَّدَائِدَ وَالْمَصَائِبَ ليدفعهم دفعًا -لو كانوا يعقلون- إلى التفكر في أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فيتركوا غرور القوة، والإصرار على العناد، ويُظهروا التضرع بين يدي رب العباد، فكلمة (لَعَلَّ) تفيد الترجي، والأصل أن الترجي ينبغي أن يصحبه عمل يدل على تحقق المرجو أو الوصول إليه

بصيرة: مِمَّا ثَبَتَ بِالتَّجَارِبِ وَتَقَرَّرَ عِنْدَ عُلَمَاءِ النَّفْسِ وَالْأَخْلَاقِ أَنَّ الشَّدَائِدَ تربّي الناس، وتعيدهم إلى رشدهم، وتزيل فسادهم، وتحرِّك قلوبهم إلى مواطن الرشد والصلاح، وأن بقاء التَّرَف والقوة والرخاء ربما أفضى إلى الغروروالاستكبار والغطرسة والكبرياء.

قال محمد رشيد رضا ؒ: "وَقَدْ رُوِيَ لَنَا أَنَّ الْحَرْبَ الْعُظْمَى (الحرب العالمية الأولى) قَدْ كَانَ لَهَا هَذَا التَّأْثِيرُ حَتَّى فِي أَقَلِّ النَّاسِ تَدَيُّنًا، وَهُمْ أَهْلُ مَدِينَةِ بَارِيسَ، فَكَانَتِ الْمَعَابِدُ تُرَى مُكْتَظَّةً بِالْمُصَلِّينَ فِي أَثْنَاءِ شَدَائِدِ الْحَرْبِ"[١].

---

(١) تفسير المنار (٩/ ١٥).

ولكننا نتساءل: لماذا اختار الله ﷻ هذه الكلمة العربية المدهشة ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ ليعبر عن النتيجة التي يُفترض أن تقع عقب تغير الأيام، وأخذ أهلها بالبأساء والضراء؟

الجواب: ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ أصلها يتضرعون، ثم أدغمت التاء في الضاد، وهذه الكلمة اشتقت من ضَرَعَ يَضْرَعُ، والتَّفَعُّل منه تضرَّع يتضرَّع، وهنا ترى صورة من أجمل الصور هي صورة التَّفَعُّل من التضرُّع، فهو يدل على لِينٍ ورخاوة مع تقارب ودُنُوٍّ، فيقال: ضَرَعَ إليهم أي تناول ضَرْعَ أُمِّهِ، ويقال: "ضَرَعَ الوَلَد والبَكْر: نَحُفَ وضَوِيَ جسمه (كما نقول: خَسَّ). والضَّرَع -مُحرَّكة: الصغيرُ السِنِّ الضعيفُ"، ومِنْ ذَلِكَ ضَرَعَ الرَّجُلُ ضَرَاعَةً، إِذَا ذَلَّ، ويسمى الضَّرْع ضرعًا لما فيه مِنْ لِينٍ ورخاوة، هذه الرخاوة الجاذبة تجعل الصغير المسكين الضعيف يضرع لها أي: ينجذب نحوها بناء على إلهامٍ وقع في قلبه أحبَّ من أجله الدُّنُوَّ من الضَّرْع ، فعلم أن تقربه من الضَّرْع سيترتب عليه تحقيق حياته ومصالحه.

فجاءت كلمة: ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ لتُظهر لنا التَّفَعُّل أن الواحد منهم أصبح في حالة عاطفية عقلية تدفعه إلى أن يحرِّك قلبه وعقله نحو ربه، فيرجع إلى الصواب، ويسأل رب الأرباب ومسبب الأسباب الفرج من البأساء والضراء، ويُقلع عن الذنوب التي سبَّبت له ولغيره هذا البؤس وذاك التَّباب، فتدفعه البأساء والضراء ليصل إلى حالة الصواب.

بصيرة: العبد المتضرع هو الذي يُظهر الضَّعف والذُّل والخشوع والخضوع والدُّنُوَّ من ربه ﷻ، فبالتَّضَرُّع يُظهر العبدُ فقرَ نفسِه، وضعفَه أمام ربه ﷻ، ويشاهد كمال مولاه العظيم في علمه وقدرته ورحمته وعطائه وهباته وجوده وكرمه، ولا بد أن يصحب الإخلاصُ التَّضَرُّعَ، فكيف يكون متضرعًا من لم يكن مخلصًا؟!

إِنْ مسَّنا الضُّرُّ أو ضَاقتْ بنا الحِيَلُ — فلنْ يَخِيبَ لنا في ربّنا أملُ
وإنْ أناختْ بِنا البَلْوى فإنَّ لنا — ربًّا يُحَوِّلُها عنَّا فتَنْتَقلُ
اللهُ في كلِّ خَطْبٍ حَسْبُنا وكَفَى — إليه نَرفعُ شَكْوانا ونَبتهلُ
مَنْ ذا نلوذُ به في كشفِ كُربتِنا — ومَنْ عليه سِوى الرَّحمنِ نَتَّكِلُ

يا مالكَ المُلْكِ فارفعْ ما ألمَّ بِنا   فما لنا بِتَوَلّي دَفْعِهِ قِبَلُ
فأنتُ أكرمُ مَنْ يُدعى وأرحمُ مَنْ   يُرجى وأمرُك فيما شئتَ مُمْتَثَلُ
يا ربِّ عطفًا فإنَّ المسلمين معًا   مما يقاسون في أكبادهم شُعَلُ
وقد شَكَوا كلَّ ما لَاقوه مِنْ ضَرر   إليك يا مالكَ الأملاكِ وابتهلوا
يا ربِّ وانصرْ جنودَ المسلمين على   أعدائهم وأَعِنْهُمْ أينما نزلوا[١]

وهنا يأتي هذا السؤال: لماذا يأخذ الله ﷻ عباده بالبأساء والضراء مع أنه رحيم تواب حليم كريم وهاب؟

الجواب: لأنه كذلك، فالأخذ بالبأساء والضراء من أعظم علامات رحمة الله ﷻ بعباده.. إنه منحة إلهية لمن يتفكر في نتائجها ومآلاتها.

> **بصيرة: من أعظم مظاهر الرحمة الإلهية أنْ أرسل الله ﷻ البأساء والضراء على الخلق، عساهم أن يراجعوا أنفسهم قبل أن يحلَّ عليهم العذاب المستأصل.. إنه ينبههم بتلك القوارع الكونية، والمطارق المعيشية لعلهم يفيقون من غيِّهم، ويرجعون عن فجورهم.**

ونقل ابن عبد ربه من عيون الحكمة:

"رب محسودٍ على رخاء هو شقاؤه، ومرحوم من سَقَمٍ هو شفاؤه، ومغبوطٍ بنعمةٍ هي بلاؤه، وقال أبو تمام:

قَدْ يُنْعِمُ اللهُ بالبَلْوى وإنْ عَظُمَتْ   وَيَبْتَلي اللهُ بَعْضَ القَومِ بالنِّعَمِ[٢]

وتنير هذه الآية عقلَ ابن القيم ﷺ، فيقول: "لَوْلَا مِحَنُ الدُّنْيَا وَمَصَائِبُهَا، لَأَصَابَ الْعَبْدَ مِنْ أَدْوَاءِ الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ وَالْفَرْعَنَةِ وَقَسْوَةِ الْقَلْبِ مَا هُوَ سَبَبُ هَلَاكِهِ عَاجِلًا وَآجِلًا، فَمِنْ رَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ

---

(١) الأبيات من لامية ابن عمر الضمدي في الاستسقاء، حقَّقها د/ عبدالله بن محمد أبو داهش، وهي: لمحمد بن علي بن عمر الضمديّ التهاميّ، ولد سنة ٨٨٣ بهجرة ضمد من المخلاف السليماني بتهامة وتوفي سنة ٩٩٠هـ.
(٢) البيت لأبي تمام في ديوانه (ص: ٣١٦).

أَنْ يَتَفَقَّدَهُ فِي الْأَحْيَانِ بِأَنْوَاعٍ مِنْ أَدْوِيَةِ الْمَصَائِبِ، تَكُونُ حَمِيَّةً لَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَدْوَاءِ، وَحِفْظًا لِصِحَّةِ عُبُودِيَّتِهِ، وَاسْتِفْرَاغًا لِلْمَوَادِّ الْفَاسِدَةِ الرَّدِيئَةِ الْمُهْلِكَةِ مِنْهُ، فَسُبْحَانَ مَنْ يَرْحَمُ بِبَلَائِهِ، وَيَبْتَلِي بِنَعْمَائِهِ.

فَلَوْلَا أَنَّهُ- سُبْحَانَهُ- يُدَاوِي عِبَادَهُ بِأَدْوِيَةِ الْمِحَنِ وَالِابْتِلَاءِ، لَطَغَوْا، وَبَغَوْا، وَعَتَوْا، وَاللَّهُ- سُبْحَانَهُ- إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْرًا سَقَاهُ دَوَاءً مِنَ الِابْتِلَاءِ وَالِامْتِحَانِ عَلَى قَدْرِ حَالِهِ يَسْتَفْرِغُ بِهِ مِنَ الْأَدْوَاءِ الْمُهْلِكَةِ، حَتَّى إِذَا هَذَّبَهُ وَنَقَّاهُ وَصَفَّاهُ، أَهَّلَهُ لِأَشْرَفِ مَرَاتِبِ الدُّنْيَا، وَهِيَ عُبُودِيَّتُهُ، وَأَرْفَعِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ رُؤْيَتُهُ وَقُرْبُهُ"[١].

فالقوارع الجزئية لا تعني عذاب الاستئصال للذرية الآدمية... كلا! فما هي؟

إنها منبهات مؤقتة، يقول الله ﷻ عنها: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [المؤمنون: ٧٥-٧٧]، ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأعراف: ٩٤]، إن الله لا يرسلها عليهم للعبث -تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا- بل يأخذ عباده بالشدة في أنفسهم وأبدانهم وأرزاقهم وأموالهم، لا للانتقام ولا لإرواء غلة ولا شفاء إِحْنَة[٢] كما تصور ذلك أساطير الوثنية اليونانية عن (زوس) و(أريس) والآلهة المكذوبة العابثة الحاقدة!

يأخذ الله ﷻ الصالحين بالبأساء كما حدث للمسلمين في حصار شعب أبي طالب ليظهر مدى ثباتهم على الضراعة لربهم، وقيامهم بالأسباب المادية لرفع البلاء عنهم، ويأخذ الله ﷻ المستكبرين وأتباعهم بالبأساء والضراء عسى أن تستيقظ فطرتهم المخبوءة خلف ركام الأكاذيب والانحرافات؛ ولذا جمع الله ﷻ بين تحريم الظلم بين الناس وبين استغنائه عن عبادتهم، وحاجتهم هم لعبادته، فعن أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا

(١) زاد المعاد (٤/ ١٧٩).

(٢) أي: الحِقد في الصدر. انظر. العين للخليل (٥/ ١٦٦).

عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»[1].

ويأخذ الله ﷻ العالَم، والفتنة لا تقتصر على الذين ظلموا خاصة، فربما عمَّهم الألم.

بصيرة: الألم خير مُهَذِّب للنفس المستكبرة، وهو الذي يفجِّر ينابيع الخير المُسْتَكِنَّة، ويعيد النفوس الشاردة لتُصلِح و اقعَها المُعْوَجَّ، وتُصلِح ضمائرها التي ملأها صدأ الكبر والغرور والبَطَر.

إن آلام البأساء والضراء تذكِّر المجرمين بمدى القساوة التي سلَّطوها على الضعاف المكروبين ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾.

ولكن أخبرني إذا كان بعض من ينتسبون إلى المسلمين يأبون إلا أن يقولوا: قد مس آباءنا الضراء والسراء، فماذا تتوقع من قوى الغفلة والاستكبار في العالم أن يفعلوا؟

وحتى يكتمل الجمال البياني الأخَّاذ في الآية لا بد لنا أن نبحث عن الفرق بين كلمة ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ بفك الإدغام في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام: ٤٢]، وكلمة: ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ بالإدغام في هذه السورة؟

الجواب: الكلمتان في السورتين تكملان الصورة الكلية، فكلمة: ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ في سورة الأنعام بفك الإدغام تدل على التَّضَرُّع في صورته المعتادة، وكلمة: ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ في سورة الأعراف تدل على أن التَّضَرُّع ينبغي أن يكون في حالته المقترنة بالعاطفة الشديدة الجياشة.. إنها العاطفة التي يعكسها التشديد في اللفظ الذي تلمسه في الإدغام.. ألا تشعر بوطأته وقوته وهديره؟!

(١) مسلم (٢٥٧٧).

وهنا نسأل: عرفنا السُّنَّة الثالثة التي تتحقق في كل المجتمعات، وكل الحضارات، وهي سُنَّة أَخْذِ الكافرين -وربما مَنْ جاورهم- بالبأساء والضراء، فما السُّنَّة الرابعة؟

الجواب:

السُّنَّة الرابعة: سُنَّة الإمهال وتَجَدُّدِ الرخاء: فالعذاب الذي يصيب تلك الحضارات عذاب متقطع غير مستأصل، فيُمِدُّ الله ﷻ لتلك الحضارات، فلا يعاقبها على استكبارها عقوبة مدمرة تدميرًا كليًّا، بل يَعْقُب أزماتها بعضُ عهود الرخاء، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

وهنا نسأل: لماذا جاءت كلمة ﴿ثُمَّ﴾ في أول الآية ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾؟

الجواب: جاءت هذه الكلمة لتنبهنا على سُنَّةٍ جديدةٍ في التحولات الاجتماعية هي سُنَّة: محدودية أنواع العذاب التي تحلُّ بالأمم المستكبرة لمدة طويلة، فيصيبهم عذاب جزئي، ثم يأتي بعده نعيم ورخاء، فقد ذكر الله ﷻ لنا في الآية السابقة أنه يسلط عذابًا مدمرًا يحلُّ بالحضارات المستكبرة، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

فتسوء حالة الناس، ويظهر عليهم الاستياء، لذلك سماها الله ﷻ ﴿سَيِّئَةً﴾، فيتوجعون لنزول تلك البأساء ولحلول تلك الضراء، ويسمُّون ما حدث لهم: سيئة، أي: حالة سيئة أصابتهم، مثل: أعاصير جزئية، وحرائق محدودة، وربما زلازل في أماكن معينة تشمل الغافلين المستكبرين، وقد تصيب المؤمنين، ومثل ذلك أزمات اقتصادية، وجوائح مرضية، وخلل في الأمن، وحروب متقطعة، ويحدثنا الله ﷻ أن ذلك لا يستمر، فيقول: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا﴾ أي غيرنا هذه الأزمات على أهل تلك الحضارات التي أخذنا أهلها بالبأساء والضراء، فجعلنا ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾، وهي البأساء والضراء، والتبديل التغيير من حالٍ إلى حال.. فما الذي حَلَّ محل الحالة السيئة؟

حلت الحسنة مكان السيئة، والحسنة هي الرخاء والنعماء والسَّعة في المعيشة، وسمَّى الله ﷻ حالة الرخاء والمسرَّة حسنة؛ لأنها تَحسن في أعين الناس، وسمَّى حالة الشقاء والهم سيئة؛ لأنها ممَّا يسوء الناس، كما قال: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٥٠][1].

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٢/ ٥٧٤- ٥٧٥).

فجاءت ﴿ثُمَّ﴾ هنا لتجيب عن السؤال الغافل الذي تسأله بعض القوى المستكبرة.. عندما يَفْجُرون، ويحتفلون بالفجور.. عندما يظلمون ويجعلون مظالمهم إنجازاتٍ يتباهون بها.. عندما يقتلون ويرابون ويدمرون ويتاجرون بالمخدرات والجنس المحرم.. وهم في كل ذلك يفرحون بل يسعون أن يُعَيَّنوا نُجُومًا (مشهورين) ملهمة في العالم.. ويسألون بفجور: لو كان هناك عذاب لعُذِّبنا.. لولا يعذبنا الله بما نقول ونفعل؟

فتكشف كلمة ﴿ثُمَّ﴾ الجواب عن هذه الأسئلة الظالمة الفاجرة، فيحل بهؤلاء الفجَّار القوارع الجزئية من البأساء والضراء، ويظهر ذلك في النكبات الاقتصادية، والخيبات من الصفقات التي كانوا يظنون أنهم سيَجْنُون منها ورائها الأموال الطائلة، وفي الأزمات الأسرية المتتابعة، والحياة التي يملؤها ضحك ظاهر، ويسيطر عليها حزن مكتوم، وشعور بالضياع، وفي البطانة الاستشارية المزورة التي تمدح الإنجازات الكاذبة، أليس هذا عذابًا وبؤسًا؟

ولكن العذاب المدمر لا يأتي مباشرة، فكلمة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي، وهي تُنبِئنا بأن البأساء والضراء تعبِّر عن أنواع محدودة من العذاب قد تطول مدتها، وأن العذاب الجزئي الذي يحلُّ بها يُرفع عنهم، وهذا معنى قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾.

وهنا نسأل: عرفنا السُّنَّة الرابعة التي تتحقق في كل المجتمعات وكل الحضارات، وهي سُنَّة الإمهال وتَجَدُّدِ الرخاء، فيبدل الله ﷻ مكان السيئة الحسنة، فما السُّنَّة الخامسة؟

الجواب:

السُنَّة الخامسة: سُنَّة العفو التكاثري الذي يؤدي إلى نسيان الأحداث السابقة: إذ تتغير الأيام، وتتداول، فتتقلب بين السيئة والحسنة، والشقاء والرخاء، وتزداد أوقات الرخاء على الغافلين والمستكبرين حتى يصلوا إلى مرحلة (العفو)، وهي مرحلة تعني التكاثر التنموي في المراحل الدنيوية فيَكْثُرون مالًا وقوة وربما عددًا، ويفتخرون بذلك فيَتْرُكون النُّصْح الصادق، ولا يهتمون للألم الذي يصيبهم من السيئة التي تضربهم من وقت إلى آخر، ويُبَصِّرُنا بهذه السُّنَّة قول الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ [الأعراف: ٩٥].

وهنا نسأل: ما الحكمة من اختيار هذه الكلمة ﴿عَفَواْ﴾ لتُعبِّر عن هذه المرحلة؟

الجواب: لأن العقوبة التي تصيبهم صورها الله بأنها (سيئة) أي: تسوؤهم، فيكرهون وجودها، ولا يبحثون عن سببها، فما يقولون: هي بسبب ذنوبنا.. بسبب إعراضنا، وهنا يبدل الله ﷻ مكانها حسنةً، أي: حالة من الرخاء الحسن الذي يحسن في أعينهم، ويتكرر ذلك عليهم، بأن تأتيهم (سيئة)، أي: عذاب جزئي، يعقبه (حسنةً) أي: رخاء جزئي، وتطول حالة الرخاء الجديدة الجيدة حتى يصلوا إلى هذه المرحلة ﴿عَفَواْ﴾ أي: انطمس عليهم الفهم الصحيح، وتكاثروا، وصار عندهم بعض الزيادات المحدودة في حياتهم، فيظنون عند ذلك أنهم وصلوا إلى درجة الانتصارات، وأن تغيُّرَ الحال بين الحالة السيئة والحالة الحسنة أمرٌ معتادٌ في قوانين في الأرض التي تعمل بنفسها، فليس هناك مدبِّر يقلبها بين التعذيب والتنعيم كيف يشاء.

وكلمة (عفا) معلوم أنها تعني: انطمس، فيقال: عفا فلان عن فلان إذا طمس خطأه، وجعله كأنه لم يكن، وهنا ربما نسأل: فكيف صارت (عفا) بمعنى كَثُرَ؟

الجواب: ﴿عَفَواْ﴾ كلمة سبق أن بيَّناها في سورة البقرة، ودعونا ننظر ظلالها؛ إذ **تأملتُ في المسألة كثيرًا، وظهر لي أنه يمكننا أن نلحظ الجامع المشترك لمعاني (عفا)**[1]:

---

(١) الأضداد لابن الأنباري (ص٨٦)، مقاييس اللغة (٤/ ٥٦)، المفردات في غريب القرآن (ص٥٧٤)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٤٩٠).

فهي تعني: تركَ الشيء على هيئةٍ معينةٍ مخصوصة تنطمس فيه معالمه، وتندرس مقابل أن يكثر شيء فيه ويُزاد على السابق، فإذا كثر أَنْسى اللاحقُ السابقَ، فكأنه محا ذِكْرَه، وهكذا اجتمع فيها الترك والمحو والزيادة في وقتٍ واحد.

فالعفو يقال لكل شيء كثر، فإنه يقال فيه: "قد عفا" كما قال لبيد:

ولَكِنَّا نُعِضُّ السَّيْفَ مِنْهَا بِأَسْؤُقِ عَافِيَاتِ الشَّحْمِ كُومِ[١]

أي: نجعل السيف يعض سِيقان عافياتٍ أي: ضخمة متنعمة

وعندي -بناء على تقعيد الراغب رحمه الله- أن عفا بمعنى زاد تفسيرٌ بالنتيجة، فكأن الأجيال الجديدة من النبات والإنسان والحيوان تُنسي الأجيال السالفة وتمحوها، ويكون المعنى: جاءت البأساء والضراء في السنوات الماضية، ثم جاءت السراء في سنوات لاحقة، فأنستهم ما أصابهم من قبل، فكأن الراغب رحمه الله يرى أن عفا قَصْدُ ما يجعل الموجود ممحوًا إما بطمسه، وإما بتكثيره ليَجعلَ الجديدُ القديمَ منسيًّا، فالعفو الترك لتَحْدُث الفائدة للمعفو أو للمعفو عنه بألا يُمس ويؤخذ، فيكثر حتى ينسي جديدُه قديمَه، وبعد ذلك نفهم أن العفو تركُ العقاب الذي يترتب عليه فائدة المعفو عنه، فيعفو أي يكثر ويزداد في عافية كثرةً خاصةً، تتعلق بما حدث له فيه العفو؛ من جسد أو بلد أو أجيال.

ومن ذلك عَفَتِ الرِّيحُ الدَّارَ: قَصَدَتْها متناولة آثارها، فحركت عليها ترابًا تزيده عليها، فطمست آثارها السابقة ومحتها، وزادت في تربتها، **وهنا قالوا: العفو يقال لكل شيء كثر**، ويقال: عفا النبات وعفا الشحم والوبر، إذا كثرت، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «انْهَكُوا الشَّوَارِبَ وَأَعْفُوا اللِّحَى»[٢] أي: وفِّروها، والظاهر عندي: اتركوها فتزداد، على أن ابن بطَّال بيَّن أن ذلك ليس على إطلاقه[٣]، **ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أسألك العفو والعافية»[٤] أي: تَرْكَ العقوبة**

---

(١) ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص١٢٠).

(٢) البخاري (٥٨٩٣).

(٣) ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩/١٤٥).

(٤) أحمد (٤٧٨٥)، وصححه النووي في الأذكار (ص:١٦٢).

الترك الذي يؤدي إلى العافية أي محو السابق غير المرغوب، والنمو الذي يجلب الرخاء للبدن والحال، وذلك قوله لعائشة ﵂ في دعاء ليلة القدر: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»[1] أي: امح ذنبي السابق بتكثير توبتي في اللاحق، وتكثير حسناتي فيما أستقبلُ من الزمان.

بصيرة: إنَّ الإكثار من طلب العفو من الله ﷻ في ليلة القدر يدل على أهميته، فليس هو مجرد مغفرة للذنب؛ بل هو محوٌ كاملٌ للحال السابق من التقصير والخطأ، يُتبعه فتحٌ وزيادةٌ لحالٍ لاحقٍ من القبول والقرب الإلهي.

فقول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ [الأعراف: ٩٥]، أي تُرِكوا فلم يُعاقَبوا حتى كثروا عددًا وأجيالًا ونمت أوضاعهم الاقتصادية، وقوتهم الذاتية، فهنا تركهم الله ﷻ تركًا أدَّى إلى كثرتهم ونموهم، لكنه لم يعف عنهم، بل هم عَفَوا بسبب ذلك الترك.

فعن مجاهد ﵀، في قول الله ﷻ: ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾: "السيئة: الشر، والحسنة: الرخاء والمالُ والولد"، وقال ابن زيد ﵀: "بدلنا مكان ما كرهوا ما أحبُّوا في الدنيا"، وعن ابن عباس ﵄: "قوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ يقول: حتى كثروا وكثرت أموالهم"، قال ابن زيد ﵀ في قوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾: كثروا كما يكثر النَّبات والرِّيش، ثم أخذهم عند ذلك بغتة وهم لا يَشْعُرون، وإذا كثرت أموالهم وأولادهم فرحوا بذلك، وهذه النتيجة فسَّرَ بها قتادة ﵀ قوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾، فقال: "حتى سُرُّوا بذلك".

وهذا تفسير بالمآل أي مآل الكثرة في المال والولد والنتاج أن يُسَرُّوا، وأنكر الطبري ﵀ عليه هذا التفسير أولًا ثم التمس له عذرًا في أن تفسيرَه تفسيرٌ بالنتيجة، فقال: "وهذا الذي قاله قتادة ﵀ في معنى: ﴿عَفَواْ﴾ تأويلٌ لا وجه له في كلام العرب؛ لأنه لا يُعرَفُ (العفو) بمعنى السرور في شيء من كلامها، إلا أن يكون أراد: حتى سُرُّوا بكثرتهم وكثرةِ أموالهم، فيكون ذلك وجهًا، وإن بَعُد"[2].

---

(١) أحمد (٢٥٣٨٤) ، الترمذي (٣٥١٣) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم في المستدرك (١٩٤٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٢/ ٥٧٤-٥٧٦).

هنا ندرك أن قوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم، وذلك لأن الله ﷻ بدَّل البأساء والضراء باليُسْر والنعمة والرَّخَاء، وذلك يكون سببًا في كَثْرَةِ النَّسْل، والنمو الاقتصادي، واتساع وسائل التبادل والتجارات والتواصل، وكل ما يسبب الازدهار، وتزداد نسبة النمو السكاني، والطبقات الوسطى.

ومن أمثلة ذلك: النمو الاقتصادي والجسدي الضخم عند قوم هودٍ عليه السلام إذ قال لهم: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۡۜطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ [الأعراف: ٦٩].

ومن العفو ما لاحظناه من النمو الحضاري التقدمي عند قوم صالح عليه السلام إذ ذكَّرهم بذلك، فقال لهم: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [الأعراف: ٧٤]، ومثل ذلك النمو السكاني ذو المنافع المتعددة عند قوم شعيب عليه السلام إذ قال لهم نبيهم: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦﴾ [الأعراف: ٨٦].

وهنا نسأل: عرفنا أن السُّنَّة الخامسة هي سُنَّة العفو التكاثري الذي يؤدي إلى نسيان الأحداث السابقة، فما السُّنَّة السادسة؟

الجواب:

السُّنَّة السادسة: سُنَّة التفسير المنحرف: إذ يصل صنَّاع القرار في تلك الحضارات إلى حالة التفسير المنحرف للأحداث، فبدلًا من التضرع حال الشدة، والشكر حال الرخاء يظنون أن قوانين الرخاء والشدة في تداول الأيام تعمل بنفسها، فيزدادون سوءًا، ويفسِّرون تحولات الأيام تفسيرًا منحرفًا يُؤَثِّرون به على جمهور الناس فيتبعونهم في هذا التفسير، ويبصِّرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف: ٩٥].

فبَعْدَ أن يصلوا إلى مرحلة (العفو التنموي) أي: العفو التكاثري الذي يؤدي إلى نسيان الأحداث السابقة، فيطمسون الفهم الصحيح لها، ويفسرونها تفسيرًا خاطئًا فيقولون: ﴿قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي: ما حدث لنا من مصائب ومصاعب من الضراء قد حدث لمن قبلنا، فهو شيء معتاد، وما حدث لنا من نِعَم ورخاء قد حدث لمن قبلنا، فهذه قوانين متكررة تعمل بنفسها، ولا يدبرها الله ﷻ بمشيئته.

انظر إلى خطورة التفسير الذي تُرَدِّده بصورٍ متعددة وسائل الإعلام هذه الأيام حتى أصبح كأنه حقيقة ثابتة؛ إذ تُركز على تقديم التفسير المادي البحت للكوارث الطبيعية الكبرى (كالزلازل والأعاصير)، عبر إرجاعها إلى عوامل الطبيعة والتقلبات المناخية فحسب، تحت مُسمى "التفسير العلمي". غير أن هذا التركيز يُغفل الحقيقة الأساسية بأن تلك الأحداث قد تكون غضبًا من الله وابتلاءً، هدفها دفع الناس إلى التضرع والرجوع عن الغيِّ والباطل.

هنا يكشف الله ﷻ لنا عن خطوات القَدَر الإلهي مع المستكبرين الغافلين.. يأخذهم بالبأساء والضراء لعل قلوبهم تصحو وترق، وتلجأ إلى الله ﷻ وتتضرع إليه، وتُقْبِلُ وتشفق، لعل القلوب الممتلئة بالاستكبار تستيقظ من البوار والخسار.

فإن لم تنتفع بالبأساء والضراء أبدلهم الله ﷻ شيئًا من الرخاء والنعماء، لكنهم لم يستجيبوا للحق، وعندها يغمرهم بالنعماء والسراء، ويفتح عليهم أبواب الرخاء، ويتركهم ينمون ويكثرون ويستمتعون (العفو التكاثري)، وبدلًا من البحث عن تفسيرٍ صحيحٍ يزدادون غفلة وصدًّا وإعراضًا واستكبارًا، ويحسبون أن الأمور تمضي جُزافًا بلا إرادة مدبرها الله سبحانه، وبلا حكمة مقدرها جل شأنه، ويظنون أن السَّراء تعقب الضَّراء من غير حكمة ولا ابتلاء، وأنه إنما

أصابهم ما أصاب آباءهم من قبل؛ لأن الأمور تمضي هكذا بلا تدبير: ﴿وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾.

للأسف.. هم لا يشاهدون الأشياء على ما هي عليه، بل يظنون الحياة لهوًا ولعبًا، وهنا تظهر مرحلة العفو التكاثري، ويعبِّر عنها بصورة واضحة قول الله ﷻ: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٤-٥٦].

فسُنَّة العفو التكاثري، والتفسير الزائف للأحداث جزء من سُنَّةٍ أكبر هي سُنَّة الاستدراج، ويذكر الله جلَّ ذكرُه هذه السُنَّة الهائلة الخفية في معرض التحدي المذهل لمن يغطي الحقائق أمام العالم، يذكرها لمن يتلاعب مزهوًا مغرورًا بالوسائل الحقيقية لإصلاح الأرض، فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

وتبحث في البيان القرآني العظيم: لماذا قدَّموا في تفسيرهم ذِكْرَ الضراء وأخَّروا ذِكْرَ السراء؟

الجواب: ربما لأنهم يتوقعون في أي لحظة أن تنقلب أحوال الضراء إلى رخاء وسراء، فيعودون إلى أبشع مما هم عليه من الإجرام والفسق والعصيان والعدوان.

لقد رحمهم الله ﷻ لمَّا أعرضوا فأخذهم بالبأساء والضراء؛ لعلهم يضَّرعون.. أرسل لهم التنبيهات المختلفة ليستيقظوا، فربما يُعْمِلون الفكر ليوصلهم إلى الإقلاع عن الاستكبار والإجرام.. إلى أن يجمعوا بين البحث عن الحلول المادية، والبحث عن مسبب الحلول المادية كَما قالَ تَعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦]؛ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ وهَبَهم عقولًا يفكرون بها بصورة صحيحة، فأبو إلَّا أن يعرضوا ويستكبروا ويمضوا في ضلالهم وإجرامهم.

فيقولون مثلًا: ما المشكلة أن تَحْدث لنا بعض النكبات الاقتصادية، أو الاجتماعية، أو الهزائم العسكرية، أو الكوارث الطبيعية؟ لقد حدث ذلك لآبائنا من قبل، فقد مستهم الضراء، فحدثت لهم النكبات، وكذلك مستهم السراء فانجلت عنهم تلك النكبات، وجاءتهم الانتصارات، وحققوا

الإنجازات، فقالوا: هذه عادة الدهر، تتناوب على الناس بين الضراء والسراء، فليس ذلك للابتلاء، فلا داعي لأي تفسيراتٍ غيبية لا نعرفها، فإِنَّمَا هُوَ الدَّهْرُ تَارَاتٌ وَتَارَاتٌ، وَلَمْ يَتَفَطَّنُوا لِأَمْرِ اللَّهِ ﷻ فِيهِمْ، وَلَا اسْتَشْعَرُوا ابْتِلَاءَ اللَّهِ ﷻ لَهُمْ فِي الْحَالَيْنِ(١).

وتفتح لنا الآية الباب واسعًا لصور متعددة تدخل تحتها، فما أمثلة هذه الصور؟

الجواب:

لتتصور الصور المختلفة التي تنبئك بما وقع من أحداث يشعر بها ابن عاشور رحمه الله، ويرى أن الآية تحتملها:

فتصور الآية أنَّ بعضهم لمَّا رأوا شيئًا من العذاب يتحرك لنصح الآخرين، ويطالبهم بأن يعلنوا التوبة والعودة إلى ربهم ﷻ لينكشف الضر، ولكنه يُفاجأ بفلسفة إبليسية عند أطراف أخرى من قومه، فهم يردون على طلبه منهم بإعلان التوبة، فيقولون: وماذا هناك؟ ﴿قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾! وكما اكتشفوا طرقًا لحل أزماتهم سنكتشف نحن طرقًا، وربما قالوا مستكبرين: الحل عندنا لا في السماء.

وأيضًا تصور الآية صورة أخرى من هذا القول: ﴿قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾؛ إذ يحتمل أنه يُعبِّر عن صراع نفسي بين الغلو في المادية وبين النفس التي تجمع بين العقل والروح والمادة، فجانبٌ من نفس الإنسان يقول: لماذا لا أتوب، وأخبر الناس بالتوبة، فيجيبه الجانب الآخر، فيقول له: ﴿قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾.

وصياغة الآية جاءت لتحتمل هاتين الصورتين وغيرها من الصور التي تتعدد بـ"تَعَدُّدِ مَيادِينِ النُّفُوسِ والأحْوالِ"(٢).

هذا حال الغافلين الذين يجهلون سُنن الله ﷻ الكونية أو الشرعية أو يجهلونهما معًا، فربما عَلِموا السنن الكونية، ونسَوا السنن الشرعية وفق ما ذكره الله ﷻ في قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٩).

وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

بصيرة: الآية تحمل تحذيرًا شديدًا ... لا تغرنَّك السماء الساكنة، ولا الأرض الخضراء، فذاك مجرد استدراج، فهناك عاصفة مدمرة قادمة في الأفق، وإن لم نَرَهَا.

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: ٩٥] يخبرنا عن استدراج مُحْكَم يقع فيه هؤلاء المستكبرون؛ فإن هؤلاء الذين أبدلهم الله ﷻ الحسنة مكان السيئة التي كانوا فيها استدراجًا وابتلاء لا استحقاقًا ورضًا، وبدلًا من أن يراجعوا حساباتهم ازدادوا غرورًا فقالوا: هذه أحوال قد أصابتْ مَنْ قبلنا من آبائنا، ونالت أسلافَنا، ونحن لا نعدُو أن نكون مثلهم يصيبنا ما أصابهم من الشدة في المعايش والرخاء فيها: وهي "السراء"؛ لأنها تَسرُّ أهلها، وجَهِلَ المساكين شكرَ نعمة الله ﷻ، وأغفلوا مِن جهلهم استدامةَ فضلِهِ بالإنابة إلى طاعته، والمسارعة إلى الإقلاع عما يكرهه بالتوبة، حتى أتاهم أمره وهم لا يشعرون.

وهنا ترى مقدار الضلال الرهيب في التفكير لهؤلاء: يشجعون نشر الشرك في العالم، ويشربون الخمور ويعملون على نشرها.. يفْجُرون ويعملون على نشر الدعارة والتجارة في الجِنس...يرابون ويصرون على نشر المعاملات المالية المحرمة.. يقتلون الضعفاء، ويغتصبون حقوق الأبرياء، وعندما تحدُث لهم النكبات والزلازل والمصيبات يرون أن الضرر منها محدود، ثم يرون أنه قد جاءهم عقب ذلك انفراج من تلك الأزمات، وبدلًا من أن يتضرعوا إلى الله ﷻ فيقبلون عليه إقبال الرضيع الجائع المحتاج المتذلل إلى مكان شبعه وأنسه وراحته.. بدلًا من ذلك يقولون: هذه الأحداث قد مست آباءنا، فأصابتهم النكبات والمصيبات، وجاءهم بعد ذلك الرخاء والسرور.. فيستمرون على جرائمهم وفواحشهم.

ومما يدلك على طول هذه الفترة كلمة ﴿ثُمَّ﴾ كما بينا، وكذلك كلامهم عن آبائهم؛ إذ طريقة كلامهم يدل على أن الله ﷻ يملي لهذه الحضارة الفاسقة حتى تتعاقب عليها الأجيال.

وهنا نسأل: فهمنا أن الغافلين يفسرون الأحداث تفسيرًا خاطئًا، فما التفسير الصائب الحق لما يحصل لنا من ضراء وسراء؟

الجواب في البصيرة الآتية:

بصيرة: إن المتيقظين المؤمنين يفسرون تقلب الدهر تفسيرًا صحيحًا، فيرون الضراء إما ابتلاء وإما عقوبة، فيستكينون لربهم ﷻ، ويتضرعون، ويصبرون على الضراء، ويرجون من الله ﷻ رفعها، ويرون السراء نعمة من الله ﷻ، فيَشْكُرُونَ اللَّهَ عليها، ويستعملونها في طاعته ومرضاته لا في معصيته وإغضابه، ويسألونه المزيد من فضله.

ويعلمنا الله ﷻ أن ننظر إلى الأحداث بمنظارين بحسب من تَمَسَّه، فيقول الله ﷻ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، وَمِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، نعم نحن لا نجزم بأن الأخذ عقوبة لفلان، وابتلاء لفلان بأعيانهم، لكننا ننظر للحالة العامة، وقد ذكر الله أهل أحد فقلب انتصارهم هزيمة، وتمكينهم تشتتًا، ووصف واقعهم بعد ذلك النجاح الكبير بالفشل، فقال: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، ويبقى علم من يريد الآخرة مسألة غيبية، لكن ذلك لا يصادر حقنا في أن نقول: ذلك تمحيص للمؤمنين إما ابتلاء تعقبه رحمة، أو عقوبة لها نتائجها المختلفة.

"ولكن شأن المؤمن أن يعرف هذه المداولات بأسبابها وحكمها، ويتحرى الاتعاظ، وتربية نفسه بها، لا كما يراها الكافرون والجاهلون بظواهرها وصورها"[1].

(١) تفسير المنار (٩/ ١٧)

فعن صهيب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ : «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[١].

إن حلت المصيبة أو الضراء فإن المؤمن يصبر محتسبًا، فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ أَوِ الْمُؤْمِنَةِ، فِي جَسَدِهِ، وَفِي مَالِهِ، وَفِي وَلَدِهِ، حَتَّى يَلْقَى اللهَ ﷿ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ»[٢].

وهنا نسأل: عرفنا السُّنَّة السادسة، وهي سُنَّة التفسير المنحرف، إذ يفسرون الأحداث التي تقع لهم بصورة غافلة خاطئة، فما السُّنَّة السابعة؟

الجواب:

---

(١) مسلم (٢٩٩٩).

(٢) أحمد (٧٨٥٩)واللفظ له، (الترمذي ٢٣٩٩)، قال الترمذي: "حسن صحيح" ، وحسَّن محققو المسند إسناده.

السُّنَّة السابعة: سُنَّة العقوبة الماحقة المستأصلة: فبعد أن يفسِّروا تحولات الأيام تفسيرًا خاطئًا يصرُّون على إجرامهم، وهنا يستحقون العقوبة المستأصلة، لكنها لا تأتيهم متدرجة بحيث يشعرون بها بل تأتيهم بصورة مباغتة، ويُبَصِّرنا بذلك قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٩٥﴾.

فقول الله ﷻ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ الفاء تفصح عن كلام محذوف، والتقدير: "أَيْ: فَكَانَ عَاقِبَةُ ذَلِكَ أَنْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَجْأَةً، وَهُمْ فَاقِدُونَ لِلشُّعُورِ بِمَا سَيَحِلُّ بِهِمْ"(١).

يقول: فأخذناهم بالهلاك والعذاب فجأة، فأتاهم على غِرَّة منهم بمجيئه، وهم لا يدرون ولا يعلمون أنَّه يجيئهم، بل هُم يظنون أنه لا يأتيهم، لذلك يكذِّبون مقدماته حتى يأخذهم.

وكلمة ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ تصورهم لنا والعذاب يتناولهم ويجمعهم بصورة خفية سريعة مستولية عليهم، مستحوذة على جموعهم، فلا يملكون منه فكاكًا؛ لأن الأخذ يقتضي أن **يقبض العذاب عليهم قبضًا محكمًا**.

وهنا نسأل: ما وجه قوة هذه الكلمة القرآنية: ﴿بَغْتَةً﴾؟ وما الحكمة من مجيئها لتعبِّر عن المفاجأة بالأخذ القاهر المدمر؟

الجواب: ﴿بَغْتَةً﴾: من بَغَتَه(٢) الأَمرُ يَبْغَتُه بَغْتًا، وباغَتَه مُباغَتةً وبِغاتًا، إذا فاجأه بصورة محيرة مدهشة، فالمباغتة أخص من المفاجأة وأقوى.

فالبَغْت: مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب بصورة سريعة تحير المباغَت، فلا يملك معها شيئًا، ولذا استعملت هذه الكلمة الدقيقة بدلًا عن كلمة (فجأة) في القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [يوسف: ١٠٧].

قال ابن الرومي:

فإن قلتَ مكروهٌ ألمت فُجاءةً   فما فوجئت نفسٌ مع الخَطَراتِ

---

(١) تفسير المنار (٩/ ١٦)

(٢) ينظر. تفسير الطبري (١١/ ٣٢٥).

إذا بَغَتَتْ أشياءُ قد كان مثلُها قديمًا فلا تعتدَّها بغتَاتِ[١]

وقَالَ يَزيد بْنُ ضَبَّةَ الثَّقَفِيُّ:

ولكنَّهم ماتُوا، وَلَمْ أَدْرِ، بَغْتَةً وأَفْظَعُ شيءٍ، حينَ يَفْجَؤُكَ، البَغْتُ[٢]

ويظهر أن المفاجأة عامة فيما يُسَرُّ ويُكره بشيء خفيف أو ثقيل، وأما المباغتة فتكون بأمر شديد أو مكروه.

فإن كان معنى المباغتة: المفاجأة التي تهبط عليهم بما يشتد عليهم من أمر مكروه، وذلك يعني أنه يأتيهم دون أن يشعروا به، فلماذا قال الله ﷻ بعدها: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الأعراف:٩٥]؟

الجواب: لا بد أن نتعرف إلى معنى كلمة ﴿يَشۡعُرُونَ﴾ ليظهر لنا جمالُ موقعها، فقد اشتقت من (شَعَرَ)[٣]، وهي: كلمة تدل على ثباتٍ لخَلْقٍ مع مرونة وحركة، ومنه الشعر المعروف جمعه أَشْعَارٌ كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾ [النحل:٨٠]، وَالشَّعَارُ بفتح الشين: الشَّجَرُ الملتف، وَالشِّعَارُ بكسر الشين: مَا وَلِيَ الْجَسَدَ مِنَ الثِّيَابِ؛ لِأَنَّهُ يَمَسُّ الشَّعرَ الَّذِي عَلَى الْبَشَرَةِ، والشِّعَارُ كذلك: الكلام الَّذِي يَتَنَادَى بِهِ الْقَوْمُ فِي الْحَرْبِ لِيَعْرِفَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فهو عَلَمٌ على كلام مميز كما أن الشَّعَر عَلَمٌ على جزء مميز دقيق من الجسد.

ومن هذا المعنى المادي الحسي جاء الأمر المعنوي، فقالوا: شَعَرْتُ أي أصبت الشَّعْرَ، ثم قد تكون إصابة الشَّعْرَ بحيث يحس به بقوة وألم عند نزع الشَّعْرَ، وقد تكون خفيفة فلا يحس به، فقد يمسك أحدٌ شعر رأسك، فتحس به؛ لأنه ينزعه، وقد يَرْبِتَ عليه فلا تحس به، ومنه استعير قولهم: شَعُرْتُ بِالشَّيْءِ، إِذَا علمت علمًا مصحوبًا بإحساسٍ خفيف خفي أو ثقيل في الدِّقَّة كإصابة الشَّعر، وأخذًا من نفاذ الشعر الدقيق، فأحسست به كأنه جزء من جسدي وعَلِمْتَهُ وَفَطِنْتَ لَهُ شعوري بحركة الشعر في رأسي، فهو جنس من العلم لطيف دقيق، فقوله: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢] أي: لا تعلمونه علمًا يحرك منكم الحواس، فتنتبهون لما يترتب عليه.

---

(١) البيت لابن الرومي في ديوانه (١/ ٣٧٧)، وفي الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص:٢٣٥) مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) لسان العرب (٢/ ١١).

(٣) ينظر. مقاييس اللغة (٣/ ١٩٣).

وبذا يكون شعر يَشْعُرُ شِعْرًا - بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحِ - وَشُعُورًا كأنه عَلِمَ بِأموره الباطنة علمًا تلمسه حواسه فضلًا عن أموره الظاهرة، ففقدان المشاعر معناه عدم إدراكها بالحواس، وهو وضع أسوأ من عدم تعقلها، فلو قال في كثير مما جاء فيه لا يشعرون لا يعقلون لم يكن يجوز إذ كان كثير مما لا يكون محسوسًا قد يكون معقولًا، وَقَوْلُهُمْ: لَيْتَ شِعْرِي فِي التَّحَيُّرِ فِي عِلْمِ أَمْرٍ خَفِيٍّ، وَلَوْلَا الْخَفَاءُ لَمَا تَمَنَّى عِلْمَهُ بَلْ لَعَلِمَهُ بِلَا تَمَنٍّ[1].

بصيرة: في قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ تحذيرٌ شديد للمستكبرين وللغافلين وللأتباع الخائفين من نفوذ المجرمين، فالمباغتة تعني المفاجأة في الوقت والمكان والزمان والكيفية بأمرٍ شديدٍ أو فظيع.

ويدل قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ على أن العذاب باغتهم ونفذ إليهم دون أن يُحِسوا به من أين جاء، وأنهم فقدوا الإحساس الذي يجعلهم يعملون على فعل ما يدفع عنهم العذاب لخفائه ودقته في الوصول إليهم.

وكلا الحالين: المباغتة، وعدم الشعور عند وقوع العذاب يدلان على عدم رغبتهم في التوبة، وعلى عدم تمكنهم منها إن أرادوها كما حدث مع فرعون، فإنه رغب في التوبة، ولم يتمكن منها، فما لهم يُسَوِّفون؟! وما لهم للتوبة الصادقة يؤخرون؟!

وهنا نسأل: ما الأثر الذي تتركه هذه الآيات في نفس وفكر من يقرؤها أو يسمعها؟

الجواب: يكون أثرها عظيمًا عليه، فتصور النبي ﷺ وقد أُنزلت عليه لساعته، تتصوره وهو يرى المكذبين المعاندين له، يرى قوى الاستكبار التي تصد عن سبيله، يراها جميعًا وهي لم تأت ببدعٍ من التفكير، ولا بشيء جديدٍ من التآمر والتدبير، إنهم يفعلون ما فعله السابقون، وسيأتي عليهم ما جاء على الكافرين قبلهم: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف: ٩٥].

(١) مقاييس اللغة (٣/ ١٩٤)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٦٢)، التحرير والتنوير (١/ ٢٧٨).

وليس هذا الجحود والعناد من الكافرين إلا مظهرًا من مظاهر طبيعة الإنسان التي تتجلَّى في تقلبه وإعراضه عن الحق عند الرخاء، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ۝٨٣ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ۝٨٤﴾ [الإسراء: ٨٣-٨٤]، وقال: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ۝٤٨﴾ [الشورى: ٤٨].

فهذا الغافل يعتقد أنه ينبغي أن يستمتع بلحظته في ظلم الناس وأخذ حقوقهم، وما يشعر أن الله ﷻ له بالمرصاد.

وهنا نسأل: عرفنا السُّنَّة السابعة، وهي سُنَّة العقوبة الماحقة المستأصلة، فما السُّنَّة الثامنة؟

الجواب:

السُّنَّة الثامنة: سُنَّة العدل: فأهم عوامل التنمية وإنقاذ الحضارات من الأزمات والنكبات عاملان: الإيمان والتقوى، فإذا اختار الناس التكذيب جاءتهم العقوبة المستأصلة، ويُبَصِّرنا بهذا قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

هنا يخبرنا الله ﷻ بأهم عوامل الفتح والازدهار وبقاء الحضارات أو إنقاذها عند حلول الأزمات، وهي أعظم عوامل التنمية المستدامة: الإيمان والتقوى، فيقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾.

فعلى أي شيء جاء العطف في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾؟ وماذا تبدي لنا هذه الواو من الاتصال بما قبلها؟

الجواب:

جمال كلمات آية البركات وبلاغتها: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ...﴾:

الكلمة (١): الواو في قوله: ﴿وَلَوْ﴾: وصلت هذه الآية ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ بالآيات قبلها كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأعراف: ٩٤] وتظهر لنا هذه الواو المعنى الآتي باعتبار هذا العطف:

أيْ: ما أرْسَلْنا في قَرْيَةٍ نبيًّا فَكَذَّبَهُ أهْلُها إلّا نَبَّهْناهم من خلال تغيير أحوالهم، فأخذناهم بالبأساء والضراء، ثم اسْتَدْرَجْناهم فأذقناهم بعض السراء، فلم يشكروا، وبطروا وعفوا، فعاقَبْناهم عقوبة ماحقة، فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون، وهنا ترى المناسبة والاتصال واضحين: إنها مناسبة التقابل، والتضاد، فالأمم السابقة المذكورة في الآيتين السابقتين كذبوا، ونحن نخبرهم كما نخبركم بأن:

أساس الازدهار الحقيقي للحضارات أمران: الإيمان والتقوى.

وأنت ترى المجتمع الرأسمالي تخبّئ قشورُه البراقة كثيرًا من المآسي، ويكفيك أن ترى فيها حال كبار السن، والتجارة المقننة بالنساء والأطفال، وانتشار مافيات الرقّ الأبيض، وبيع الأعضاء، وتجارة السلاح، وتحويل الإنسان إلى آلة يُتَحَكَّم فيها.

والانتحارُ يحدثك عن جزء من المآسي الخفية التي تخفيها قشور الحضارة الغربية.

هنا تأتي هذه الآية لتبين الطرف الآخر المقابل لسُنَّة الله الجارية في الأمم المكذبة.. إنها سنَّته في الأمم الصالحة التي جمعت الإيمان والتقوى.

الكلمة (٢): ﴿لَوْ﴾:

فنسأل عن جمال كلمة (لو) في هذه الآية المباركة؟

الجواب: يظهر جمال كلمة (لو) من خلال معرفتنا أولًا لهذه الكلمة؛ إذ تفِيد –كما يقرر ابن هشام رحمه الله-[1] ثَلَاثَة أُمُور:

المعنى (١): الشّرطِيَّة أو الرابطية أي عقد السَّبَبِيَّة والمسببية بَين الجملتين بعْدهَا، والمراد أنها تربط بين جملتين الأولى منهما: سبب، والثاني منهما: ما يترتب على هذا السبب، وهو النتيجة، فالمعنى: ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا، فهذا هو السبب، فما النتيجة؟ لفتحنا عليهم بركاتٍ.

المعنى (٢): تَقْيِيد الشّرطِيَّة بالزمن الْمَاضِي، وَبِهَذَا الْوَجْه وَمَا يذكر بعده فَارَقت كلمة (إِنْ)، فَإِنَّ كلمة (إِنْ) لها المعنى ذاته، ولكن فِي الْمُسْتَقْبل، ففي هذه الآية: ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا أي في الماضي.

بينما كلمة (إِنْ) لو دخلت، فقلنا: إنْ آمن أهل القرى واتقوا، فنفهم منها أنَّ المطلوب أن يقع ذلك في المستقبل.

وهنا نذكر معنى في غاية اللطافة والدقة، فيقولون: الشَّرْط بـ(إنْ) سَابق على الشَّرْط بـ(لو)؛ وَذَلِكَ لِأَن الكلام عن الزَّمن الْمُسْتَقْبل سَابقٌ على الكلامِ عن الزَّمن الْمَاضِي عكس مَا يتَوَهَّم المبتدئون؛ لأن (إنْ) تُستعمل للتحذير مما سيقع في المستقبل، فأنت تكلم إنسانًا الآن، فتقول له: إنِ اتقيت الله فتح لك من فضله، فإذا لم يتق الله بعد ذلك تقول له بعد أن وقع في المصيبة: لو اتقيت الله فتح لك.

---

(١) ينظر. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص٣٣٧-٣٣٨).

المعنى (٣): الِامْتِنَاع. فيقرر ابن هشام ﵀: أن فهمَ الِامْتِنَاع مِنْهَا كالبديهي؛ فَإِن كل من سمع (لَو) فَهِمَ عدم وُقُوع الْفِعْل من غير تردد، فعندما تقول: لو اتقيت الله لفتح لك- يفهم السامع أن المخاطَب امتنع عن تقوى الله، فامتنع عنه الفتح، وَلِهَذَا يَصح فِي كل مَوضِع اسْتعْملت فِيهِ (لو) أَن تعقبه بِحرف الِاسْتِدْرَاك دَاخِلًا على فعل الشَّرْط منفيًا لفظًا أَو معنى، فتقول: ولكنك لم تتق الله فلم يفتح الله لك، وَمِنْه قَوْل امرئ القيس:

وَلَو أَنَّما أسعى لأدنى معيشةٍ ... كفاني -وَلم أطلبْ- قَلِيلٌ من المَالِ

ولكنَّما أَسعى لمَجدٍ مُؤَثَّلٍ ... وقد يُدْرِكُ الْمَجْدَ المُؤَثَّلَ أَمثالي[1]

فأدركنا جمال المعاني الثلاث لكلمة (لو)، وبذا سنرى أثرها العظيم فيما بعدها، فقد وجدنا الله قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فبصَّرنا هذا بأن الله ﷻ اشترط عليهم الإيمان والتقوى؛ ليفتح لهم البركات، وفهمنا أن هذين الشرطين طُلِبا منهم في الماضي ليفعلوهما في حياتهم، لكنهم امتنعوا عن فعلهما، فلم يفتح الله ﷻ لهم بركات من السماء والأرض، وهنا جاءت أداة الاستدراك ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

لكننا نسأل: هل يصح أن تكون ﴿لَوْ﴾ هنا حرف امتناع لامتناع؟ وكيف يصح ذلك، ونحن نرى الكفار لم يؤمنوا ولم يتقوا، وعلى الرغم من ذلك نرى بركاتٍ من السماء والأرض توجد عندهم، ونراهم يتقلبون في البلاد كيفما شاؤوا؟

الجواب: الراجح أن (لو) تفيد امْتنَاع الشَّرْط خَاصَّة، وَلَا دلَالَة لَهَا على امْتنَاع الْجَواب (النتيجة) وَلَا على ثُبُوته، وَلكن فِي ذلك تفصيل:

الأول: إن كَانَ الجواب مُسَاوِيًا للشَّرط فِي الْعُمُوم كَمَا فِي قَوْلك: لَو كَانَت الشَّمْس طالعة كَانَ النَّهَار مَوْجُودًا، فلزم انتفاء النتيجة؛ لِأَنَّهُ يلْزم من انْتِفَاء السَّبَب الْمسَاوِي انْتِفَاء مسببه، والمقصود: يمتنع وجود النهار إن لم تكن الشمس طالعة.

---

(١) ديوان امرئ القيس (ص١٣٩).

وَإِن كَانَ الجواب أَعم، كَمَا فِي قَوْلك: لَو كَانَت الشَّمْس طالعة كَانَ الضَّوْء مَوْجُودًا، فَلَا يلْزم انتفاء النتيجة، وهو الضوء إن لم تكن الشمس طالعة، وذلك لأن الضوء قد يوجد من غير الشمس كالقمر، وكالنجوم، وكالمصباح وَإِنَّمَا يلْزم انْتِفَاء الْقَدْر الْمسَاوِي مِنْهُ للشَّرط وَهَذَا قَول الْمُحَقِّقين[1].

ويتلخص على هَذَا أَن يُقَال: إِنَّ (لَو) تدل على ثَلَاثَة أُمُور: عقد السَّبَبِيَّة والمسببية، وكونهما فِي الْمَاضِي، وَامْتِنَاع السَّبَب، وأما الجواب وهو النتيجة فقد يمتنع، وقد لا يمتنع[2].

فقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ﴾ [فاطر: ١٤].

السبب: السماع، والنتيجة في الآية: عدم الاستجابة، ولو امتنع السبب، وهو السماع أي إن لم يسمعوا، فهل تتخلف النتيجة؟ لا، بل أولى ألا يستجيبوا.

ومثل ذلك قوله ﷻ: ﴿لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ﴾ [الإسراء: ١٠٠]، فَإِن الْإِمْسَاك عِنْد عدم ذَلِك أولى.

"**وَالثَّانِي**: أَن يكون الْجَواب مقررًا على كل حَال من غير تعرض لأولوية نَحْو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ﴾ [الأنعام: ٢٨]، فَهَذَا وَأَمْثَاله يعرف ثُبُوته بعلة أُخْرَى مستمرة على التَّقْدِيرَيْنِ. وَالْمَقْصُود فِي هَذَا الْقسم تَحْقِيق ثُبُوت الثَّانِي وَأما الِامْتِنَاع فِي الأول فَإِنَّهُ وَإِن كَانَ حَاصِلًا لكنه لَيْسَ الْمَقْصُود"[3].

قال ابن هشام ﷺ: "وَقد اتَّضَح أَن أفسد تَفْسِير لـ (لَو) قَول من قَالَ حرف امْتنَاع لِامْتِنَاع، وَأَن الْعبارَة الجيدة قَول سِيبَوَيْهِ ﷺ حرف لما كَانَ سيقع لوُقُوع غَيره وَقَول ابْن مَالك حرف يدل على انْتِفَاء تال وَيلْزم لثُبُوته ثُبُوت تاليه"[4].

بصيرة: إن الحضارات التي لم تؤمن ولم تتقِ قد نراها تمتلك خيراتٍ عظيمة، فعدم وجود الإيمان والتقوى لا يعني حرمانهم من النِّعَمِ الدنيوية؛ لأن الرزق الدنيوي يأتي للمؤمن ولغير المؤمن.

(١) ينظر. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص٣٤٠).
(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص٣٤٠).
(٣) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص٣٤١-٣٤٢).
(٤) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص٣٤٢).

ثم نأتي إلى الكلمات (٣-٥): ﴿أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، فما وجه جمال هذه الكلمات؟

الجواب: (أن) حرف يفيد التأكيد على الجملة بعده، أي تيقنوا، وثقوا أن أهل القرى لو آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات، وأهل القرى يراد بهم أهل الحضارات العظيمة التي ربما كان فيها مجموعة من المدن، وذلك مثل الحضارات السابقِ ذكرها، وهي: حضارة قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وكذلك الحضارات المتعددة المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ [الأعراف: ٩٤] من الحضارات التي لم يذكرها الله ﷻ تفصيلًا.

ويُبَصِّرنا قوله: ﴿أَهْلَ﴾ بأن القرى في ذاتها تملك من خزائن الرزق والخير ما يكفيها، ولكنها قد تنعدم عنها إن أخلَّ أهلها بما يجب عليهم أن يفعلوه من الإيمان والتقوى، كما حدث لأصحاب الجنة الذين أبوا أن يعطوا حق المسكين فيها، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون، فأصبحت كالصريم، **فالفساد يَظهَر بسبب أهل الأرض لا بسبب الأرض.**

الكلمات (٦-٧): ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾:

ذكرهما الله ﷻ في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فجعل الله ﷻ الإيمان والتقوى عمودين يتسبب وجودهما في فتح البركات، فما وجه العلاقة بينهما وبين البركات؟

الجواب: حتى نفهم تغيرات الحياة وعلاقتها بالإيمان والتقوى لا بد أن نعرف معنى الإيمان، ومعنى التقوى:

الإيمان هو: التصديق المتيقن بالله وكلماته، والإقرار بذلك قولًا وفعلًا، وذلك يعني أن نتبع كلماته التي أنزلها على رسوله ﷺ، وأن نجعلها دستورًا للحياة، وحينها نجد الأمن، فالإيمان حقيقته وجود الأمن النفسي(الداخلي)، والخارجي، ولا يعني ذلك عدم وجود الابتلاء لإظهار حقيقة الإيمان كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة:١٥٥]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١]، ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢].

فعندما ترى المؤمنين مستضعفين في فلسطين أو غيرها، فلا يعني ذلك أن الإيمان لم تترتب عليه البركات، ولم يأت منه الأمان، بل يعني ذلك أنه لا بد من الابتلاء في هذه الحياة، ثم تكون العاقبة للمتقين.

وهنا ربما سأل سائل: هل الإيمان بالله ﷻ يؤدي إلى إعمار الحياة بذاته؟

الجواب: نعم فـ"الإيمان بالله دليل على حيوية في الفطرة، وسلامة في أجهزة الاستقبال الفطرية، وصدق في الإدراك الإنساني، وحيوية في البنية البشرية، ورحابة في مجال الإحساس بحقائق الوجود.. وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية.

والإيمان بالله قوة دافعة دافقة، تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها، وتتجه بها إلى وجهة واحدة، وتطلقها تستمد من قوة الله ﷻ، وتعمل لتحقيق مشيئته في خلافة الأرض وعمارتها، وفي دفع الفساد والفتنة عنها، وفي ترقية الحياة ونمائها، وهذه كذلك من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية.

بصيرة: حسبك في عظمة الإيمان بالله ﷻ أنه يُسهم في حرية الإنسان، وفي تحرر المجتمعات؛ فيحرر الفرد والمجتمع من عبادة الهوى، ومن العبودية للعبيد، وهل يمكن لعبَّاد العبيد أن يعمروا الأرض بالقسط؟ إنهم يبنون القصور لكن لأسيادهم، ويديرون المصانع لكن لأربابهم الذين لا يزيدونهم إلا خسارًا.. يستعملونهم كالآلات، ثم يقذفونهم بعيدًا.

عرفنا العامل الأول من عوامل البركات أي: التنمية والإنقاذ: إنه عامل الإيمان، وأدركنا أن الإيمان يقتضي التحرر من عبادة الهوى وعبادة العبيد إلى عبادة رب الأرض والعبيد، فماذا يعني العامل الثاني، وهو التقوى؟

الجواب: المراد بالتقوى:

إيجاد الوقاية من المكروهات والمخوفات والآلام المستقبلية، فهي تعني الحفظ والحماية والصيانة بدفع المكروهات، وبذا تكون التقوى كلمة جذابة رائعة تقتضي توفير الحماية التي تقيك من الوقوع فيما تكرهه، فهي مشتقة من الوقاية، وهي حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، أو يخاف الضرر منه

كما قال الله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ [الإنسان: ١١]، ومن ذلك قول علي ﷺ: لما حضر البأس يوم بدر اتَّقينا برسول الله ﷺ وكان من أشد الناس، ما كان أو لم يكن أحدٌ أقرب إلى المشركين منه[1] أي جعلناه ﷺ وقاية لنا من هجوم المشركين.

بصيرة: تُشكِّل التقوى الوقاية الحقيقية، والحماية الصادقة للإنسانية بترك كل ما يسبب الضرر من الجرائم والصفات الخسيسة والرذائل، ولا يتم ذلك على أحسن وجه إلا إذا ملأ الإنسان نفسه بالصفات والفضائل الكريمة النفيسة، فالتقوى تُوجِد الإنسان الصالح الذي يعمر الحياة، ويحمي نفسه من نقاط الضعف الكامنة، والأخطار المستقبلية.

والتقوى بذلك تشمل أمرين:

١) أن يحاسب العبد نفسه على إضاعة أموره الإيمانية الغيبية في المجالات العبادية المحضة، مثل: الصلاة والصيام، فيضع الوقاية المناسبة لينجو من خطر هذه المحاسبة بأن يكون من المحسنين في عباداته.

٢) أن يحاسب العبد نفسه على إضاعة حقوق العالم والحياة من حوله، فيضع الوقاية المناسبة لينجو من خطر هذه المحاسبة بأن يكون من المحسنين في معاملاته.

وقد رأينا الدول الغربية والشرقية العادلة أقامت جزءًا من هذا الجانب، إذ يحاسب فيها المفسد أحيانًا، ورأينا في المقابل أن أمة الإسلام ربما أضاعت التقوى إجمالًا، فلا يحاسب المفسد على فساده، بل يزداد تَرَقِّيًا.

(١) أحمد (١٠٤٢)، وقال محققو المسند: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حارثة بن مضرب فمن رجال أصحاب السنن، وهو ثقة"، وقال أحمد شاكر: "إسناده صحيح".

إن تقوى الله هي وعي يقظ يحمي الإنسان من التهور، الاندفاع المفرط، والتجاوز في خضم الحياة وحركتها. وتوجه الجهد البشري بحذر وانضباط، مما يمنع العدوان أو التهور أو تخطي حدود العمل الصالح.

وعندما تسير الحياة في توازن بين الدوافع والضوابط، عاملة بجد ومتطلعة إلى مرضاة الله، متحررة من الأهواء والأنانية، تصبح سيرة صالحة ومُنتجة. هذه السيرة تستحق عون الله ومدده بعد رضاه، وتكون نتيجتها المحتومة هي البركة، والخير الشامل، والفلاح. الأمر هنا يجمع بين السعي الواقعي المنظور بأسبابه ونتائجه الواضحة، وبين لطف الله المستور وقدره الغيبي الموعود.

الكلمة (٨): ﴿لَفَتَحْنَا﴾ في قوله: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ﴾:

ما الجمال الذي تظهره كلمة ﴿لَفَتَحْنَا﴾ هنا؟

الجواب: كلمة (فتح)[1] تعني فرجة يدل وجودها على إزالة الحواجب والحواجز والسدود والحوائط بين طرفين، فتكون أمام الطرف المستقبل للطرف المقابل، وأمام الطرف المقابل للطرف المستقبل، والفَتْحُ نوعان:

أحدهما: الفتح المادي، وهذا يُدرَك بالبصر كفتح الباب ونحوه، وكفتح القفل والغلق والمتاع، نحو قوله: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾ [يوسف: ٦٥]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

والآخر: فتح معنوي ويدرك بالبصيرة.

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٤٦٩)، المفردات في غريب القرآن (ص:٦٢١)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٦٢٢).

أنواع الفتح المعنوي

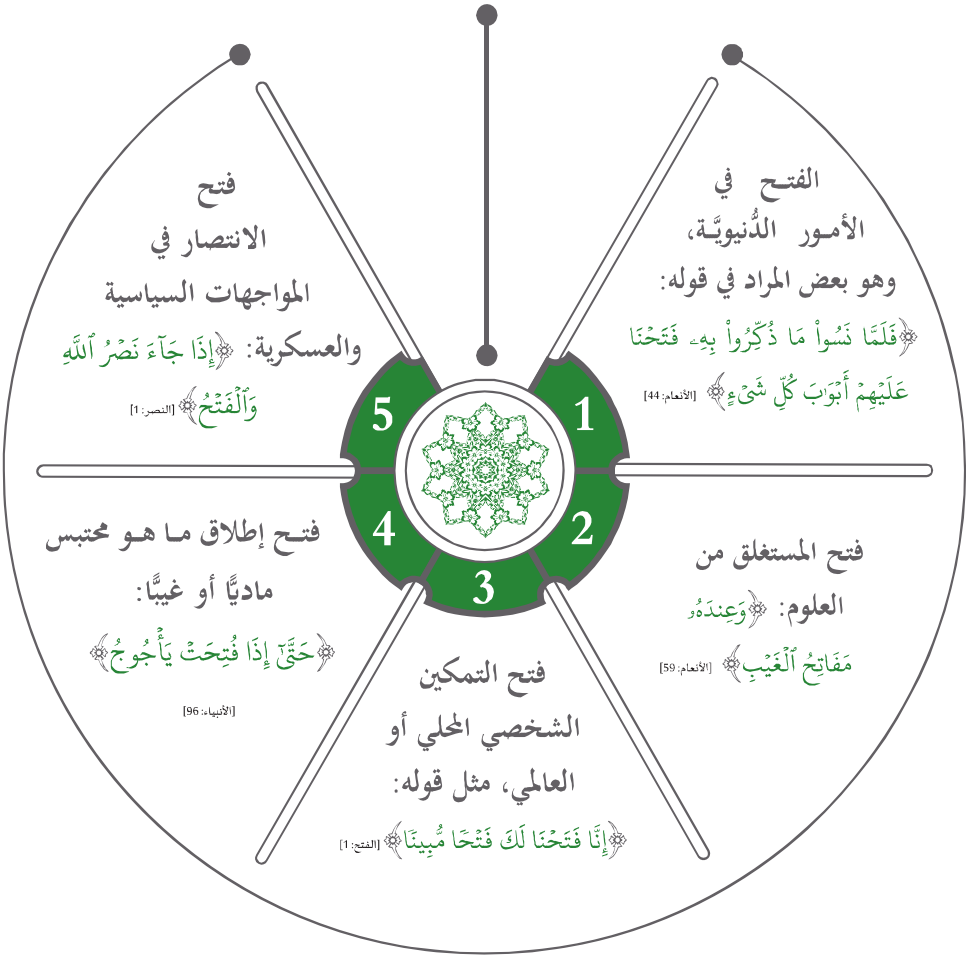

وهنا نضع سؤالًا: ما أنواع الفتح المعنوي المذكورة في القرآن الكريم؟

والجواب:

هناك خمسة أنواع للفتح المعنوي، ذكرها القرآن الكريم، وهي:

١) الفتح في الأمور الدُّنيويَّة كفتح الهمّ، وهو إزالة الغمّ، وكفتح أبواب الغنى والتمكين والعلو، وهو بعض المراد في قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

٢) فتح المستغلق من العلوم، نحو قولك: فلان فَتَحَ من العلم بابًا مغلقًا، وفَتَحَ عليه كذا: إذا أعلمه بأمر يمكن إخفاؤه والتلاعب به كما قال: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٧٦]، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩]، أي: عِلمُ الله بجميع الأمور الغيبية.

٣) فتح التمكين الشخصي المحلي أو العالمي، مثل قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، قيل: عنى فتح مكّة، وقيل: بل عنى ما فتح على النَّبيّ ﷺ من العلوم والهدايات التي هي ذريعة إلى الثَّواب، والمقامات المحمودة التي صارت سببًا لغفران ذنوبه.

والذي يظهر لي أن الله ﷻ فتح له في تدبير الرأي وإدارة المعركة مع أعدائه الأَلِدَّاء في قريش، ثم في معركته العظيمة لتبليغ الهداية للعالم، فقد كان ظاهر صلح الحديبية الهزيمة المؤلمة، وباطنه الفتح المبين الذي استوعب العالمين.

٤) فتح إطلاق ما هو محتبس ماديًّا أو غيبًّا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ﴾ [الأنبياء: ٩٦].

٥) فتح الانتصار في المواجهات السياسية والعسكرية، والْفَتْحُ طلب إزالة ما يُغلِق باب النَّصْر وَالْإِظْفَار، والِاسْتِفْتَاحُ: طلب الفتح، وقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، فإنَّه يحتمل النُّصرة والظَّفر والحكم، فبين الله ﷻ أن الفتح يكون ﴿عَلَيْهِم﴾، وكلمة (على) هنا تدل على الاستعلاء، وكأن البركات محبوسة في الأعلى، فإن آمنوا واتقوا نزلت هذه البركات عليهم من فوقهم، وبذلك يظهر أن الرزق الأصلي موجود عندهم؛ لأن الله ﷻ كتب الرزق في السماء لكل من في الأرض، فأصبح الرزق الأصلي موجودًا مجاورًا، أما البركات فتهبط عليهم من الأعلى إن فتحها الله ﷻ، ومفتاحها الإيمان والتقوى.

وانظر للتعبير القرآني المتحرك الموحي المذهل ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بمَ يوحي التعبير بالفتح هنا؟

الجواب:

في هذه الكلمات المباركة يوحي التعبير بالفتح بأنه يصور لك أبوابًا مغلقة تخبئ خلفها كنوزًا مذهلة.. هذه الكنوز تفيض هابطة من كل مكان من أمكنتها في السماء والأرض، ولأنك ستفاجأ أنه يمكن أن تستخدم كل ما هو أمامك ليكون بركة، أي: ليكوِّن أحسن أحوال النعمة، ولتبقى هذه النعمة المميزة ثابتة متكاثرة الخيرات، صالحة الهبات مع لطف في تحصيلها.

وكأنك ترى الإنسانية في طرف، والبركات الضخمة الهائلة التي أودعها الله ﷻ في السموات والأرض في الطرف المقابل، وبينهما حواجز وسُدُد أغلقت اللقاء بين الطرفين، ومفتاح ظهور الطرف المقابِل الذي فيه هذه البركات: الإيمان والتقوى.

وهنا نسأل: أدركنا جمال كلمة ﴿لَفَتَحْنَا﴾، فما معنى كلمة ﴿بَرَكَٰتٍ﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ ولماذا جاءت كلمة ﴿مِّنَ﴾؟

الجواب:

بركات جمع بركة، وهي كلمةٌ مشتقة من (بَرَكَ)(١)، وتدل على ثَبَات الشَّيْءِ، فيُقَال: بَرَكَ الْبَعِيرُ يَبْرُكُ بُرُوكًا عندما يقع عَلَى الْمَاءِ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ، أَوِ الشِّبَعِ أو لطلب الاستراحة، ومن هنا سمِّي حوض الماء المخصوص بِرْكة، فالْبِرْكَةُ: شِبْهُ حَوْضٍ يُحْفَرُ فِي الْأَرْضِ، وَلَا تُجْعَلُ لَهُ أَعْضَادٌ [صفائح منصوبة] فَوْقَ صَعِيدِ الْأَرْضِ، وقيل: الْبِرْكَةُ: الْمَصْنَعَةُ [يسمى الآن خَزَّانًا]، وَجَمْعُهَا بِرَكٌ، إِلَّا أَنَّ الْمَصْنَعَةَ لَا تُطْوَى، وَهَذِهِ تُطْوَى بِالْآجُرِّ [اللَّبِن الْمُحَرَّق الْمعد للْبِنَاء].

قلت: فسمِّي محبس الماء بهذه الهيئة بِرْكَة؛ لأن الحياة تظهر وتزدهر حواليه، فكأن ثبات الماء، وخيراته الذاتية تهب الحياة لمن يكون حواليه في الناس والأرض والزرع والأحياء، ومن ذلك قولُهم: ابترَكَت السحابةُ إذا اشتدَّ انْهلالُها وأَلَحَّتْ بالمطر، و**ابتركت السماء و أَبْرَكتْ: دام مطرُها**.. فلم يلاحظوا الدوام فقط، وإنما شدة الخيرات وكثرتها وتنوعها بناء على هذا الانهلال.

ولاحظ الدكتور محمد حسن جبل ﷺ أمرًا آخر غير: الثبات والدوام والنمو للغير، وهو اللطف المصاحب لثبات الخيرات، فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ١٠] أي:

---

(١) ينظر. مقاييس اللغة (١/ ٢٢٧-٢٣٠)، لسان العرب (١٠/ ٣٩٩).

جعلها ثابتة دائمة تقوم عليها الحياة ماءً وهواءً وخيرات وكنوزًا لا ينقطع مدَدُها عن الإنسان رغم إلحاحه في استخراجها كالنباتات وثمارها والمعادن وسائر الخيرات الأرضية.

ثلاثية مفهوم البَرَكَة:

ومن هنا قالوا: البَرَكَةُ: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، ثم نظروا إلى إفاضة الحياة حولها، فقالوا: هي الزِّيَادَة وَالنَّمَاءِ، وبذا جمعت الْبَرَكَةُ ثلاثة أمور:

الأول: الْبَقَاءُ وَالثَّبَاتُ للخيرات الأصلية.

وَالثَّانِي: النمو لهذه الخيرات الصالحة الْفَاضِلَةِ وَالنَّتَائِجِ الشَّرِيفَةِ التي لا تبعة عليها في الآخرة[١].

والثالث: اللطف في ظهور هذه الآثار، وسريان الخيرات من الأصل إلى الغير.

بصيرة: يُجاب على من ينشر الدعاية المجنونة المجرمة التي تقول: خيرات الأرض محدودة، ولا يمكنها أن تستوعب البشر الذين يزداد عددهم، بأنه مهما كثر العدد فإن خيرات الأرض سيُبَارك فيها، فتسعهم جميعًا، ولكن إدراك هذا المعنى يقتضي مفتاحًا هو الإيمان والتقوى، وهذا المفتاح يفتقده الماديون والملحدون والوثنيون.

وقول الله تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فالماء ثابت في البِرْكة لكن خيراته تفيض على الحياة، وترى ذلك محسوسًا مع أن أصله قد يكون غير محسوس، والمُبَارَك: ما فيه ذلك الخير، على ذلك: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] تنبيهًا على ما يفيض عليه من الخيرات الإلهية.

بصيرة: البركة هي أحسن أحوال النعمة، ولا تسمى بركة إلا إذا بقيت هذه النعمة المميزة ثابتة متكاثرة الْخيرات تنفح أصحابها بهباتها المتعددة مع اللطف في تحصيلها.

---

(١) ينظر. تفسير الرازي (١٤/ ٢٧٢).

فإن قلت: ما الحكمة في مجيء كلمة ﴿بَرَكَٰتٍ﴾ بلفظ الجمع لا بلفظ الإفراد؟

الجواب: لأنها تكتنز أنواعًا مختلفة من البركة، تتعدد أصنافها وأنواعها، وهيئاتها وكمياتها، **ولاحظ ابن عاشور** ﷺ **ببراعته المعهودة** أن الله ﷻ أنبأنا بأنه أعطى القرى المكذبة الحسنة، وأعطى القرى المتقية المؤمنة البركة، "فعَبَّرَ في جانِبِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمُ المُسْتَدْرَجِينَ بِلَفْظِ (الحَسَنَةِ) بِصِيغَةِ الإفْرادِ في قَوْلِهِ ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف:٩٥]، وفي جانِبِ المُؤْمِنِينَ ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ﴾ مجموعة"[١] "أيْ: خَيْراتٍ ثابِتَةً متنوعة لا يَقْدِرُ أحَدٌ عَلى إزالَتِها"[٢].

والبركات التي يَعِد الله ﷻ بها الذين يؤمنون ويتقون في توكيد ويقين، ألوان شتى لا يُفَصِّلها النصُ ولا يحددها بل يتركها لك لتتصور كل أنواع النعم المتكاثرة حولك، فهي تستعصي على الحدِّ والإحصاء.

إنها بركات تفيض من السموات والأرض بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان، وهي البركات بكل أنواعها وألوانها، وبكل صورها وأشكالها، ما يعهده الناس وما يتخيلونه، وما لم يتهيأ لهم في واقع ولا خيال!

وانظر هذه الأيام كيف أفاء الله ﷻ على البشرية من أنواع الخير ما لم يكن يتصوره أحد من قبل، فقد سخر الله ﷻ للبشرية الريح، والبحار، والصحراء والهواء، فهل شكر البشر وآمنوا واتقوا أو كفروا وجحدوا؟

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مثل الطاقة المائية، والشمسية والهوائية، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بالنبات والمعادن والرمل والحجر، ومنها تبني المدن، ومنها تقام أبنية الحضارات، والحديد وسائر المعادن المدهشة التي تستخدم في البناء والتشييد للمصانع والحماية والأدوية والاختراعات.

ما المقصد العظيم من مقاصد الإسلام الذي تمدنا به هذه البصائر التي وجدناها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟

الجواب: يمدنا الله ﷻ بمفهوم جديد من هذه الآية هو الاهتمام بمصالح الإنسان في الحياة الدنيا؛ وهذا يصحح مفهوم الزهد الذي نأى عنه بعض المسلمين، فأخطأوا في ترويجه؛ إذ ينبغي

---

(١) التحرير والتنوير (٩/٢٢).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/١٢).

للمؤمن المتقي أن يستجلب أفضل خيرات السماء والأرض، ولكن ليس وفق المبادئ الرأسمالية الجشعة، ولا المبادئ الشيوعية المدمرة، وإنما وفق مبادئ: ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ أيضًا، فهو يستجلب تلك البركات وفق: ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾، وينفقها، ويتعامل وفق: ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾.

فما الذي يعنيه أن يشوقنا الله ﷻ إلى الإيمان والتقوى بمثل هذه الآية؟

الجواب: يشوقنا إلى الإيمان والتقوى بالنتيجة التي سنكتسبها لو آمنا واتقينا.

ما النتيجة؟

الجواب: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ففي هذه الآية يوقظنا القرآن ليحبونا ببُعدٍ جديد للعبادات في الإسلام.. إنه يخبرنا أن من أهم أهداف العبادة في الإسلام تحريكَ الحياة، وبناءَ الحياة الدنيا، "والذين يتصورون الإيمان بالله وتقواه مسألة تعبدية بحتة، لا صلة لها بواقع الناس في الأرض، لا يعرفون الإيمان ولا يعرفون الحياة! وما أجدرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها الله- سبحانه- وكفى بالله شهيدًا.

ويحققها النظر بأسبابها التي يعرفها الناس: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

فلو أن أهل القرى آمنوا بدل التكذيب، واتقوا بدل الاستهتار لفتح الله ﷻ عليهم بركات من السماء والأرض مفتوحة بلا حساب، من فوقهم ومن تحت أرجلهم، والتعبير القرآني بعمومه وشموله يلقي ظلال الفيض الغامر، الذي لا يتخصص بما يعهده البشر من الأرزاق والأقوات.

بعد أن عرفنا معنى كلمات متفرقة في هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦]، سبق أن ذكرنا أن كلمة ﴿لَوْ﴾ تقترن بها كلمة ﴿وَلَٰكِن﴾ غالبًا، وهنا يأتي العامل المضاد للإيمان والتقوى، وهو: التكذيب، ويكشفه لنا قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فكيف كشفت لنا هذه الكلمات حقيقة الو اقع الذي نعيشه؟

الجواب: يتضح ذلك باستعراض معاني كلمات هذا القبس القرآني، وذلك كما يأتي:

كذَّبوا من (كَذَبَ)[1] وهو يقابل (صَدَقَ)، و(كذَّب) المتعدي يقابل (صدَّق)، "فيُقَالُ: حَمَلَ فُلَانٌ ثُمَّ كَذَبَ وَكَذَّبَ، أَيْ لَمْ يَصْدُقْ فِي الْحَمْلَةِ، فحقيقة الكذب: مخالفة الواقع من جهة ما وضع له الأمر، ولذلك ينسب الكذب إلى الأشخاص والمواد دلالة على عدم تحقق ما وضعت لأجله، فيكون في كل شيء بحسبه، فيقال: كذبت العينُ: خانها حِسُّها، ومنه "الكَذِبُ من القول"؛ لأنه مخالفة الواقع للمتوقَّع من الكلام، وَكَذَّبَ فلان فُلَانًا: إذا نسبه إلى الكذب صادقًا كان أم كاذبًا، وما جاء في القرآن في تَكْذِيبِ الصادق نحو: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [آل عمران: ١١]، ﴿كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٥]، فقوله: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ أي: نسبوا الكذب لرسلنا، فنسبوهم إلى عدم قولهم الصدق، وعدم قيامهم بالحق فيما جاءوا له وبه، وذلك يعني أنهم قالوا لدعاة الخير من الأنبياء وأتباعهم: أنتم كاذبون.

وقد تسأل: ما دلالة إطلاق وصف التكذيب في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ دون تقييده بمفعول معين؟

الجواب: لاحظ أن الله ﷻ وصفهم بالتكذيب، فأطلق ولم يقيده بشيء، فقال: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ فلم يقل: كذبوا رسلي، ولا كذبوا آياتي، ولا كذبوا دعاة الحق والحقيقة، ولا كذبوا الخير الذي رأوه في الصلاح والصالحين... بل قال: ﴿كَذَّبُواْ﴾ ليشمل ذلك كله، وليُعلمنا أن من سمات المعتدين: التكذيب المستمر لكلِّ حق أو صاحب حق، ولكل صادق أو صاحب صدق.

فإن قلت: "ما الحكمة في اختيار كلمة ﴿كَذَّبُواْ﴾ في مقابلة ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ في الآية الكريمة، مع أن المقابلة المتوقعة: (كفروا وفجروا) أو (لم يؤمنوا ولم يتقوا)؟

الجواب:

لأن التكذيب أساس الكفر، والتكذيب أساس الإثم والفجور والفسق والتهتك والخلاعة والعهر والزندقة، والتكذيب يعني: عدم التصديق برسل الله ﷻ، ولا بآياته التي تحوي كلماته، ويعني أيضًا: عدم التصديق بآيات الله الكونية التي لا يمكن إحصاؤها، وكلها تنبئنا أن للعالم إلهًا واحدًا مدبرًا.

---

(١) مقاييس اللغة (٥/ ١٦٨)، لسان العرب (١/ ٧٠٨)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ١٨٧٩).

ومن صور التكذيب العملي للقرآن والسنة في عصرنا ارتكاب المخالفات الشرعية الكبرى، مثل: التعامل بالربا، والغش، والرشوة، والتهاون في ضوابط الحجاب والاختلاط بين الرجال والنساء، وغيرها.

والنتيجة ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

هذه النتيجة مفاجئة لمن يشاهد أحوال الناس، فهو يرى أن الله ﷻ لم يأخذ المكذبين، وما زالوا يتربعون على عروش الدنيا، ويأبون أن يؤمنوا أو يتقوا، ونحن نؤمن بكلام الله ﷻ، فكيف نجمع بين ما نرى في الواقع، وبين هذه النتيجة؟

الجواب:

حتى نبصر بصائر هذه النتيجة المذكورة في آخر الآية لا بد أن نفسر كلماتها:

الكلمات (١-٤): ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ الفاء للتفريع على التكذيب تفريعًا للنتيجة على السبب، فالسبب: التكذيب، والنتيجة: الأخذ، وقوله ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ ثلاث كلمات: (أخذ)، و(نا) الدالة على عظمة الله ﷻ، و(هم) التي تشير إلى هؤلاء المُعاقَبين، وتصور هذه الكلمات أن الله ﷻ تناول هؤلاء المكذبين تناول الآخذ المستولي على ما قبض عليه، وهذا المعنى لتقريب صورة العقوبة الإلهية، وإلا فالله ﷻ ليس كمثله شيء.

الكلمات (٥-٦): ﴿بِمَا﴾ فالباء للسببية، و(ما) موصولية أو مصدرية.

الكلمات (٧-٨): ﴿كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ هذا التعبير العجيب الذي جمع الله ﷻ فيه بين الماضي والمضارع فقال: ﴿كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، يصور لنا استمرارهم على التكذيب في الماضي قبل أن يُؤخذوا عقوبةً ونكالًا، وتبصِّرنا برسوخ أعمالهم في التكذيب.

وكلمة ﴿يَكْسِبُونَ﴾ تدلنا على أنهم لم يُكذِّبوا فحسب، بل جعلوا التكذيب كسبًا لحياتهم، فتصور الأمر، فقد صار التكذيب مكاسب يسعون لها ويحققونها، ويفتخرون بتحقيقها.

وهذه الكلمة المعبرة (كَسَبَ)[1] تدُلُّ عَلَى ابْتِغَاءٍ وَطَلَبٍ وَإِصَابَةٍ يترتب عليه أن تجمع الشيء وتحصله بجُهْدٍ، فالكَسْبُ: ما يتحرَّاه الإنسان مما فيه اجتلاب نفعٍ، وتحصيل حظٍّ، كَكَسْبِ المال، وقد

(١) ينظر. مقاييس اللغة (٥/ ١٧٩).

يُستعمَل فيما يظنُّ الإنسان أنه يجلب منفعة، فيستجلب به مضرَّة، والكواسب: الجوارح لأنها تكسب فريستها، ويطلقها أهل اليمن على الغَنَم؛ لأنها تَكْسِب زرعها، وتُكسِبُ لحمها وجلدها وضرعها لغيرها.

وقد يتعدَّى إلى مفعولين، فيقال: كَسَبْتُ فلانًا كذا، وَيُقَالُ كَسَبَ أَهْلَهُ خَيْرًا، وَكَسَبْتُ الرَّجُلَ مَالًا فَكَسَبَهُ، فقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ يدل على سعيهم الجاد الجهيد؛ ليجعلوا التكذيب مكسبًا لهم في حياتهم يقيمون به معايشهم، ويتفاخرون به في المنتديات، فما يستطيع كثيرٌ منهم أن يترك هذا الكسب؛ لأنه يترفَّه في حياته، فكيف تطلب من قُسٍّ من القساوسة أن يترك دينه إذا كان الذي جعله يرتبط بدينه هو المكاسب التي يكتسبها من كونه قُسًّا، أو راهبًا، أو أحد رجال الأديان الوضعية الفاسدة؟!

وهنا يأتي أخذ الله ﷻ لهم، في الوقت الذي سماه عنده بعد أن يمهلهم.

وقد تسأل: ما الحكمة من ذكر الكسب في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ مع أن التكذيب وحدَه يكفي سببًا للأخذ؟

الجواب: لأن الله أراد أن يخبرنا أن الأخذ ليس على التكذيب فقط، بل على جعل التكذيب مكسبًا، فقد جعلوا التكذيب مكاسب يحققونها في حياتهم، ولأجل ذلك لم يؤمنوا ولم يتقوا.

ويظهر من الآيات أن الأخذ لا يأتي مباشرة بالضرورة، بل يمهل الله هؤلاء الكاسبين للسوء، المتفاخرين بالتكذيب، ويحذرهم في أثناء ذلك من نِقَمِه، فيقول لهم: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

ويُفصِّل النبي ﷺ الأجزاء التي أضاعها المسلمون من الإيمان والتقوى فاستحقوا بسببها أن يأخذهم الله بما كانوا يكسبون، بل ويُفصِّل نوع العذاب الذي يحل بهم، والعجب كل العجب أن أكثرنا كأنه لا يسمع، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ﷺ، قَالَ: «أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا.

وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمُؤْنَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ.

وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا.

وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ.

وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ، إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»[١].

وعلى الرغم من ذلك فإنك تجد الله ﷻ يصرف الأمم الكبرى عن المسلمين صرفًا جزئيًّا، ولو شاء لسلطهم علينا بقنابلهم النووية، فأبادوا المسلمين كما فعلوا مع الهنود الحمر، لكن بقية الإيمان والتقوى؛ تصرف هذا العذاب المستأصل.

فماذا يكون المعنى الكلي لقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]؟

(ال) في كلمة ﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾ هي: (ال) العهدية، وهي ترجع إلى المعهود ذِكْرُهم من الحضارات الخمس المذكورة تفصيلًا، ولكل حضارة ماضية مما أشير إليه إجمالًا في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤]، وفي هذا التصريح عن أهل هذه الحضارات تَعْرِيضٌ بِإِنْذارِ الَّذِينَ كَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ مِن أهْلِ مَكَّةَ، وتَعْرِيضٌ بِبِشارَةِ أهْلِ القُرى الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ كَأهْلِ المَدِينَةِ، والآية تهدد بصورة مباشرة كفار قريش ومن حالفهم ممن تجرؤوا على غزو النبي ﷺ في المدينة في غزوة الخندق، حتى لو كان نزول الآية في مكة، فالصياغة العامة لها تبصِّرنا بأن التهديد قائم ما دام يوجد كافرٌ واحدٌ يرغب في الاعتداء.

"وقَدْ أخَذَ اللَّهُ ﷻ أهْلَ مَكَّةَ بَعْدَ خُرُوجِ المُؤْمِنِينَ مِنها فَأصابَهم بِسَبْعِ سِنِينَ مِنَ القَحْطِ، وبارَكَ لِأهْلِ المَدِينَةِ وأغْناهم وصَرَفَ عَنْهُمُ الحُمَّى إلى الجُحْفَةِ، والجُحْفَةُ يَوْمَئِذٍ بِلادُ شِرْكٍ"[٢].

---

(١) ابن ماجه (٤٠١٩)، وقال الأرناؤوط: «حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف؛ لضعف ابن أبي مالك»، وقال البوصيري في زوائد ابن ماجه (١٨٦/٤): «هذا حديث صالح للعمل به، وقد اختلفوا في ابن أبي مالك وأبيه»، وصحَّحه لغيره الألباني في سلسلة الأحاديث الصَّحيحة (١٠٦).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢١)

نأتي الآن إلى أهم سؤالٍ يشغل بال كل قارئ مسلم وغير مسلم في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، فنحن نرى فتوحات عظيمة في الحضارات غير المؤمنة وغير المتقيَة في المجالات الزراعية والصناعية والتجارية، وكذلك نرى كثيرًا من المؤمنين الأتقياء في أنواعٍ عظيمة من العذاب والفقر والجهل والمرض والتخلف، فهل الإيمان والتقوى كافيان في إنقاذ الأفراد والحضارات من المصائب والأزمات؟ وهل التكذيب كافٍ في إيقاع العقوبات؟

الجواب واضح جدًّا في هذه الآيات وفي غيرها، نجمله فيما يأتي:

أولًا: القانون الأول في هذه الآية خلاصته: يمتنع أن يفتح الله ﷻ البركات لامتناع الإيمان والتقوى، وهذا لا ينفي أن يفتح الله ﷻ عليهم أصل الخيرات، إنما نفى أن يفتح عليهم البركات، وفرق بين أصل الخيرات والبركات.

ولاحظ ما لا يحتاج إلى دليل في أقوى دولة على وجه الأرض هذه الأيام: ابتلاها الله ﷻ بأن جعل كثيرًا من مفاتيح خيرات الأرض بيدها مباشرة أو بيد من يخضعون لها، وفي الوقت نفسه انظر في حالها: كم من الملايين من أبنائها الذين لا ينعمون بالاحتياجات الأساسية (الهوملس)[١]، وكم من الملايين لا ينعمون بالرعاية الصحية، بل تجد زعماءها السياسيين يدخلون في معارك ليمنعوا تعميم الرعاية الصحية، وانظر للفجوة الهائلة بين من يسكن تلك البلاد، فهناك من عنده ثروة شخصية تزيد على ٢٠٠ مليار دولار[٢]، وهناك ملايين لا يملكون القوت الضروري، بل يصل الأمر إلى التفريق بين الآباء والأمهات والأطفال خوفًا على المال، فأين البركات؟! ودعك من موضوع عدم السعادة الحقيقية النفسية، وحالات القتل الجماعي المتفشية سنويًّا عندهم، أو حالات الانتحار، أوانتشار المخدرات.

---

(١) يقصد به: المشردون الذين لا يملكون مأوى ولا رعاية صحية، وقد بلغ أعدادهم في أمريكا أكثر من ٧٧٠ ألف شخص حتى ديسمبر ٢٠٢٤م.: https: / /al-ain.com /article /american-number-registered-homeless

(٢) تعتبر الولايات المتحدة الأمريكية في الصدارة من حيث عدد المليارديرات فيها، وبحسب إحصائيات ٢٠٢٤م بلغ عدد المليارديرات فيها (٨١٣) مليارديرًا من إجمالي عدد المليارديرات حول العالم الذين بلغ عددهم (٢٧٨١) حسب ما نشره موقع مجلة "فوربس" الأميركية، بحسب مقال نشرته موقع قناة الجزيزة: https: / /٤u.pw /VZtdyPt٢ .

ثانيًا: تجيبنا الآية التي قبلها، فهي تخبرنا أن الله ﷻ يؤتي هؤلاء المعرضين المكذبين السراء، كما يسلط عليهم بعض العقوبات الجزئية، فهو يمنحهم الحسنة والسيئة، وتتكاثر عليهم الحالة الحسنة حتى يطيب أمرهم، فيزدادون إعراضًا واغترارًا، وتأتيهم قوارع جزئية لكنها لا تنفعهم في التذكر؛ إذ يقولون كما أخبر الله ﷻ عنهم: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف: ٩٥]، وعند اللحظة المناسبة يأخذهم الله ﷻ الأخذ المستأصل فيمتنع أن تبقى حضارةٌ ما على قوتها، وانظر لحال الإمبراطورية التي كانت لا تغيب عنها شمس، فبعض الذين كانت تحتل بلدانهم يصنعون القرار فيها الآن عن قرب وعن بعد.

فوجود الخيرات تعني أن الله ﷻ منحهم الحالة الحسنة، والسراء لكنهم لم يُمنَحُوا الثبات، ويناسب ذلك أصل معنى البركة في اللغة؛ إذ أصل معناها الثبات، فالذي نفاه الله ﷻ عنهم: فتح البركات وليس أصل الخيرات.

ثالثًا: فتح البركات للمؤمنين المتقين لا يعني حرمان غيرهم من التمتع بنعم الدنيا إلى حين، فقد قال الله ﷻ: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ٤٨]، "فَخَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بِالْبَرَكَاتِ، وَجَعَلَ نِعْمَةَ الدُّنْيَا مَتَاعًا مُؤَقَّتًا لِلْكَافِرِينَ يَتْلُوهُ الْعَذَابُ"(١)، ويؤتي الله ﷻ الدنيا من يطلبها بأسبابها، ولذا قال ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠]، ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥-١٦].

رابعًا: الله ﷻ فتح للمؤمنين المتقين بركات من السماء والأرض بصورة مدهشة، فعلى سبيل المثال: مصر كانت تُقرض بريطانيا في زمنٍ خَلا، ولكن المشكلة ليست في المؤمنين المتقين، بل فيمن يدير

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٢٣).

أصل الخيرات والبركات المفتوحة، فهل يُديرونها بتقوى أم أن الواحد منهم يُكَذِّب ويتولى؟ والنتيجة يصورها إقبال رحمه الله مناجيًا ربه:

لكَ في البرِيَّةِ حكمةٌ ومشيئةٌ   أَعْيَتْ مذاهبُها أُولي الألبابِ
إنْ شئتَ أجريْتَ الصَّحارى أنهُرًا   أو شئت فالأنهارُ موجُ سرابِ
ماذا دهَى الإسلامَ في أبنائهِ   حتى انطوَوْا في محنةٍ وعذابِ
فثراؤهم فقرٌ ودولةُ مجدِهِمْ   في الأرض نهبُ ثعالبٍ وذئابِ
عاقَبْتَنا عدلًا فَهَبْ لعَدوِّنا   عن ذنبه في الدَّهر يومَ عقابِ[١]

خامسًا: الإيمان والتقوى ركنان أساسيان: فالإيمان يعني: أن نقبل حكم الله عز وجل في العبادات، ولا بد أن يقترن بالتقوى التي تقتضي العدل في التعامل مع سائر الخلق، والعدل في التعامل يعني: العدل في توزيع الثروات وإدارتها، والبحث عن الأسباب العادلة لإقامة المعيشة الهانئة في الدنيا، وهذا يفتقده بعض المسلمين هذه الأيام، فما أكثر من يصلي، لكنه لا يمانع أن يأكل المال الحرام! وما أكثر من يسمح بإقامة المساجد، ولكنه يغزو غيره من جيرانه الأقربين والأبعدين؛ لأجل أن يقيم دنياه، دون أن يلتفت إلى تقوى الله سبحانه وتعالى!

فهدمت أنظمةُ السوء التقوى؛ إذ اجتمع علماء السوء مع فسَّاق المسلمين على الصَّدِّ عن تحكيم الإسلام في الحياة، فأبعدوا ديار المسلمين عن: التقوى، ولم يبق منها إلا رسوم شكلية، والإيمان يعني: الاستقامة على ما بين المرء وبين ربه، والتقوى تقتضي: إقامة المراقبة الإلهية في التعامل مع الناس، فيصبح التعامل قائمًا بالعدل، والإحسان، وإعطاء الحقوق حتى للحيوان، فلم يُقِم فُسَّاق المسلمين التقوى التي أمرهم الله عز وجل بها، ولم يجلبوا من الغرب إلا كلَّ فساد مُنْحَطٍّ، فكانت النتيجة هذا التخلف المدمر:

لَا عَالِمُ الشَّرْقِ بِدِينِهِ وَلَا   مُقْتَبِسُ الْعِلْمِ مِنَ الْغَرْبِ هَدَى[٢]

---

(١) هذه الأبيات لمحمد إقبال من قصيدة له بعنوان: (الشكوى). ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة (ص: ٩٨).

(٢) لم أجد له نسبه، وقد ذكره صاحب تفسير المنار (١٩/٩).

وبحسبنا أن نتذكر تفصيل التقوى في سورة النحل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل: ٩٠].

فهل أقام المسلمون العدل، وهو جانب من التقوى لتظهر البركات؟

وهل أقام المسلمون الإحسان، وهو جانب من التقوى لتظهر البركات؟

وهل أقام المسلمون مبدأ إيتاء ذي القربى، وهو جانب من التقوى لتظهر البركات؟

ها هم المحاصرون الجائعون المحرومون من حقوقهم يموتون أمام بعض المسلمين وهو على بعد أميال محدودة.. فأين التقوى، وإيتاء ذي القربى؟ والنبي ﷺ يقول: «إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ»(١).

عطايانا سحائبُ مرسلاتٌ ... ولكنْ ما وَجَدْنا السَّائلينا
وكلُّ طريقنا نَورٌ ونُورٌ ... ولكنْ ما رأينا السَّالكينا
ولم نجد الجواهر قابلاتٍ ... ضياء الوحي والنور المبينا
وكان ترابُ آدم غيرَ هذا ... وإن يك أصلُه ماءً وطِينا
ولو صَدَقوا وما في الأرض نهرٌ ... لأجرينا السَّماءَ لهم عُيونا
وأخضعْنا لمُلْكِهِمُ الثُّريا ... وشَيَّدْنا النُّجوم لهم حُصونا
ولكنْ ألحدوا في خير دِينٍ ... بنى في الشَّمس مُلكَ الأوَّلينا
تراثُ محمدٍ قد أهملوه ... فعاشوا في الخلائق مُهمَلِينا
وقد ذهب الوفاءُ فلا وفاءٌ ... وكيف ينالُ عهدي الظَّالمينا

(١) مسند أحمد (٢٥٢٥٩)، وذكر الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ٤١٥) أن رجال إسناده ثقات، وقال الشيخ مقبل في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٢/ ٥٢٢): "هذا حديث صحيحٌ".

إذا الإيمانُ ضاعَ فلا أمانٌ ولا دُنْيا لمن لم يُحْيِ دِينا

ومَنْ رَضيَ الحياةَ بغير دِينٍ فقد جعلَ الفناءَ لها قرينا[1]

ومن الطبيعي هنا أن الذين أخذوا من التقوى جانبًا أن يكونوا أعلى مقامًا وأحسن نديًّا، وأكثر رُقيًّا، وأظهر تقدمًا في مجالات الدنيا من الذين تركوها بالكلية، فقد أخذت كثير من دول الشرق والغرب بالعدل في إرجاع الأمور إلى أهلها في الطب والصحة والعمل والأمن، وأعطوا الحقوق إلى أهلها في المجمل، وصار رؤساؤهم يتوددون إلى جمهورهم، أما عندنا فإن الجمهور أذلاء بين أيدي الرؤساء يَمُنُّون عليهم بنظرة ويستكثرون عليهم خدمة، فأين الإيمان والتقوى؟

بصيرة: إذا رأيت حضارات وأممًا تنتسب للإسلام مُضَيَّقًا عليهم في الرزق، ولا ترى عليهم آثار الاستقلال في أدنى أحوالهم الحيوية، ورأيت أممًا ليس عندهم إيمانٌ ولا تقوى، وهم يتحكمون في خيرات الأرض، فلا تتعجل، ولا تتبع وهمًا تخيله لك ظواهر الأحوال!

البركات التي يعدها الله ﷻ لمن يؤمنون ويتقون قد تكون مع القليل إذا أحسن إدارتها، ومن التقوى حُسْن الإدارة، وتمتد البركات مع الإيمان والتقوى لتكون بركات في الخيرات، والنفوس المخلصات، والأرزاق المقدرات، والمشاعر الصادقات، وهنا نهتف مع إقبال ﷺ:

عاشوا بثروتنا وعِشنا دونَهمْ للموت بين الذُّل والإملاقِ

الدِّينُ يَحْيَا في سعادة أهلهِ والكأسُ لا تَبقى بغير السَّاقي

أين الذين بنارِ حُبكَ أرسلُوا الْـ أنْوارَ بين محافل العُشَّاقِ

سكبوا الليالِيَ في أنين دُموعهمْ وتوضَّؤوا بمدامع الأشواقِ

والشَّمسُ كانت من ضياء وُجوههم تُهدي الصَّباحَ طلائعَ الإشراقِ[2]

(١) هذه الأبيات من قصيدة (جواب الشكوى) لمحمد إقبال. ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة (ص: ١٠٢).

(٢) هذه الأبيات من قصيدة (الشكوى) لمحمد إقبال، ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة (ص: ٩٧).

وهنا نسأل: عرفنا السُّنَّة الثامنة وهي: سُنَّة العدل، وأن أهم عوامل التنمية و إنقاذ الحضارات الإيمان والتقوى، فإذا اختار الناس التكذيب جاءتهم العقوبة المستأصلة، فما السُّنَّة التاسعة؟

الجواب:

السُّنَّة التاسعة: الأمن من مكر الله: أعظم علامات الخسارة الذاتية والحضارية، فالتأخُّر الظاهري لوقوع العذاب لا يعني عدم الوقوع؛ إذ إنَّ وقوع العذاب محدد بميعاد يهجم على الناس والحضارات فجأة، يعلمه الله ﷻ ولسنا نعلمه، ويُبَصِّرنا بهذا قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩]، فالتقدم المادي للحضارات المزدهرة لا يعني حصولَها على بطاقة الأمان من عذاب الله ﷻ الذي قد يكون على هيئة أزمات قوية تصيبها.

تجد التعبير القرآني عن هذه السُّنَّة مدهشًا محركًا لقوى التفكير، مستفزًّا لملكات التدبر والتدبير؛ إذ أتبَع الصياغة الطلبية، فجاء السؤال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: هل عندهم بطاقات أمان من الله ﷻ أنهم مهما لعبوا وعاشوا وعاثوا، فلن يصيبهم العذاب؟!

ثم جاء بعد السؤال: الإخبار عن خسارة اللّاهين الذين يظنون أنهم قد وصلوا إلى نهاية التاريخ، وأنه لن يتغير حالهم، ولن يأتي من ينازعهم قوتهم، فقال الله ﷻ عن هؤلاء الغافلين: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾، فانظر كيف جاء السؤال بصيغة الاستنكار ليحيط بأوقات الإنسان وتصرفاته والحضارات وازدهارها.

وفي هذه الآيات الثلاث ثلاثة أسئلة متتابعة يتبعها سؤال رابع مباشر، وتشعر بوقعها المُنْكِر المتحدي تعقبها النتيجة التي تلخص السُّنَّة العامة، فلنبدأ بـ:

السؤال الأول: وهو قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾؟

وحتى نبصر بصائر هذا السؤال لا بد أن نفسِّر كلماته:

الكلمات (١-٣): ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾:

ففي قوله: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ دخلت همزة الإنكار على الفاء، فالسؤال للاستنكار والتعجيب، "والفاءُ في قَوْلِهِ: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ عاطِفَةٌ أفادَتِ التَّرَتُّبَ الذِّكْرِيَّ، فَإنَّهُ لَمّا ذَكَرَ مِن أحْوالِ جَمِيعِهِمْ ما هو مَثارُ التَّعْجِيبِ مِن حالِهِمْ، أعْقَبَهُ بِما يَدُلُّ عَلَيْهِ مَعْطُوفًا بِفاءِ التَّرَتُّبِ، ومَحَلُّ التَّعْجِيبِ هو تَواطُؤُهم عَلى هَذا الغُرُورِ والغفلة، أيْ يَتَرَتَّبُ عَلى حِكايَةِ تَكْذِيبِهِمْ وأخْذِهِمُ سؤال التَّعْجِيبِ مِن غُرُورِهِمْ وأمْنِهِمْ غَضَبَ القادِرِ العَلِيمِ"[1].

فالفاء ربطت ما بعدها بما قبلها، والتقدير: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فهل يظنون أننا إن لم نزل عليهم العقوبة الآن فقد أَمِنُوا بذلك من أي عقوبة قادمة؟ أفأمن أهل القرى أن تأتيهم العقوبة حال بياتهم وهم نائمون آمنون.

فيُنْكر الله ﷻ على أهل القرى، وقد سبق أن أوضحنا أن القرى جمع قرية سميت بذلك لاجتماع الناس فيها، وتطلق في القرآن المجيد على المِصْر الجامع، أي: الدولة، أو على المدينة العظيمة كالعاصمة، أو على الحضارة الكبيرة التي تضم عدة مدن.

الكلمات (٤-٦): ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾:

البأس هنا: قوة الله ﷻ وقدرته التي تقارن عقابه، فيصحب هذا البأسَ بؤسٌ شديدٌ لمن حلَّ عليهم -نسأل الله العافية-، وصَوَّر الله ﷻ نزول هذا البأس بالإتيان المفاجئ كأنه قادم من بعيد، فيصل إليهم في الوقت الذي يشاؤه الله ﷻ.

الكلمات (٧-٩): ﴿بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾:

البيات: من بات بياتًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]، وقد يكون بمعنى التبييت، كالسلام بمعنى التسليم. يقال: بيته العدو بياتًا، فيكون للبيات هنا معنيان:

المعنى الأول: أن يأتيهم بأسنا حال كونهم بائتين، أو وقت بياتٍ وهو الليل، أي: وقت ذهابهم للبيات، وهو الراحة في الليل، ويكون الإنسان في ذلك الوقت أكثر ما يكون أمنًا واطمئنانًا، وزاد في بيان

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٢).

الاطمئنان، فقال: ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾، فهم في وضع عدم الحركة المعروفة في النهار، وذلك أشد ما يكون الإنسان أَمْنًا.

المعنى الثاني: أفأمنوا أن يأتيهم بأسنا حال كونهم مُبَيَّتِين، أي: كما يصبر العدو على عدوه حتى ينام، ثم يهجم عليه.

وقد تسأل: ما الحكمة من تقييد التعجيب منهم والإنكار عليهم مِن أَمْنِهِم مَجِيءَ البَأْسِ، بوقت البَياتِ وحال النَّوْمِ؟

الجواب: ذكر هذا الوقت (البيات، أي: الليل)، وهذا الحال (النوم)؛ لأنهما يمثلان أشد الأوقات التي تتملَّك المرءَ فيها الغفلةُ، فوقت البيات وقت غفلة واطمئنان في البيت بَعْدَ الفَراغِ مِنَ الشُّغْلِ[1] ووقت نوم، والإنسان عندما ينام يصبح في أعلى درجات الغفلة والضعف، فهو مسلوب الإرادة، ضائع القوة، لا يستطيع أن يدفع عنه أدنى حشرة ضعيفة.. فكيف ببأس الله الجبار؟! كيف بالله الواحد القهار الذي لا تقف أمامه الجبال والفلك الدوار؟!

السؤال الثاني: ﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨].

ما الجمال المعنوي والتعبيري الذي تقدمه لنا كلمات هذا السؤال؟

الجواب:

الكلمات (١-٢): ﴿أَوَأَمِنَ﴾ فيها قراءتان:

القراءة الأولى: قَرَأَ أَكْثَرُ القُرَّاءِ ﴿أَوَأَمِنَ﴾ بِفَتْحِ الواوِ[2]، فيكون (الواو) هنا حَرْفَ عطف، والتقدير: (وأمن) ثم دَخَلَتْ عَلَيْهِ هَمْزَةُ السؤال فأصبح (أوَ أمن)، كَما دَخَلَت هذه الهمزة على كلمة (ثم) في قَوْلِهِ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ [يونس: ٥١]، فيكون المعنى: أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتًا وهم نائمون أو أمنوا أن يأتيهم هذا البأس في وقت آخر وهو: الضحى، وحال أخرى وهي: وهم يلعبون.

القراءة الثانية: قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ عَامِرٍ وأَبُو جَعْفَرٍ (أَوْ) بِسُكُونِ الْوَاوِ، فالهمزة والواو معًا حرف واحد، وَالْمَعْنَى: أَأَمِنُوا ذَلِكَ الْإِتْيَانَ أَوْ هَذَا؟ عَطْفًا عَلَى التَّعْجِيبِ، فالله ﷻ يُعَجِّب السامعين

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٩/ ٢٣).

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر بإسكان الواو، وقرأ الباقون بفتح الواو. ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٧٠).

من حال هؤلاء الغافلين، والهمزة الأولى في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ مسلطة على الجملتين بعدها: أفأمنوا هذا الوقت أو ذاك الوقت، ولا يمكنهم أن يأمنوا مكر الله في أي وقتٍ منهما.

فكِلا القراءتين تؤديان معنى واحدًا هو: التعجيب من حال الغافلين، ولكن القراءة الأولى تكرر فيها السؤال، فهمزة السؤال وجدت مرتين، بينما القراءة الثانية: السؤال واحد دلت عليه الهمزة في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ وتسلطت على الآيتين.

وهنا نسأل: ما معنى ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؟

الجواب:

قوله تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ **صَوَّر نزول عذاب الله ﷻ بصورة القادم من بعيدٍ، فهو يتقدم نحوهم آتيًا شيئًا فشيئًا حتى يصل إليهم، ويظهر لي أن الفعل ﴿يَأْتِيَهُم﴾ أقوى في إظهار جمال التصوير، ورهبته من غيره، فهو يبصِّرنا بأنه تأتَّى أن ينزل عليهم، وهم يستحقون هذا الإنزال للعذاب، فالإتيان مأخوذ من التأتّي، وهو: التهيئة، وليس المقصود به الاستعداد بل الاستحقاق، فهم يستحقون أن ينزل بهم هذا العذاب، وكلمة ﴿ضُحًى﴾ تعني وقْتَ حركتهم وقوة تبادلهم لأنشطتهم؛ سواء أكانت أنشطة اقتصادية أم اجتماعية أم إدارية أم سياسية، وربما تكون مهرجانات واحتفالات جماعية تقام في أيام أعيادهم، ولذا جاءت الجملة الحالية بعدها ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ ليبين لنا أن العذاب قد أُتي في أشد الساعات التي يأمنون فيها، فهم يلعبون فرحين بأوقات راحتهم كما ترى هذه الأيام أن الألعاب والاحتفالات والمهرجانات القومية في الأعياد إنما تطلق وقت الضحى، "والضحى** يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ وهو اسم لضوء الشمس إذا أشرقت وارتفعت، وشاعَ التَّوْقِيتُ بِهِ عِنْدَ العَرَبِ ومَن قَبْلَهم، قالَ تَعالى حِكايَةً عَنْ مُوسى عندما قالَ: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]"[1].

فوقت الضحى للحركة وازدحام المهام والأنام، ويقابله وقت البيات الذي هو للراحة والاستجمام.

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٣).

وقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ خصص هذا النشاط من بين جميع أنشطتهم التي يمارسونها في ساعات الضحى؛ ليظهرلنا مقدار أمانهم، والفعل المضارع: يصورلنا حركة الناس كأننا نراها "أيْ: يَتَجَدَّدُ لَعِبُهم شَيْئًا فَشَيْئًا فِي ذَلِكَ الوَقْتِ"[1]، ويزداد ويستمر.

ولا يظهرلي صحة الرأي الذي قال فيه: "وفِيهِ تَقْرِيعٌ لَهم بِنِسْبَتِهِمْ إلى أنَّهم صِبْيانُ العُقُولِ، لا التِفاتَ لَهم إلى غَيْرِ اللَّعِبِ"[2]؛ لأن المقصود ذِكْرُ شدة أمانهم، ومعلوم أن الناس لهم أوقات يجتمعون فيها على اللعب في الضحى مثل أيام الأعياد.

فقَيَّد التعجيبَ منهم والإنكار عليهم أن يأمنوا حلول بأس الله وقت الضحى وهم يلعبون؛ لأن وقت الضحى إما أن يكون في أوله، وهو وقت استعداد للشغل بالأكل ونحوه، وإما أن يكون في آخره فيكون وقت اطمئنان واستراحة بعد الانطلاقة الصباحية والحركة العملية، وقد قيده الله ﷻ هنا بوقت ضحى يلعبون فيه، وذلك في أيام الزينة والأعياد والاستراحات.

بصيرة: اللعب يستهلك عقل الإنسان، فلا يهتم بالحذر، ولا يتحفز للخطر؛ لأنه لا يتوقعه وإلا لَمَا كان يلعب، فإذا نزل به الخطر لم يملك الإنسان أن يدفعه بسبب استغراقه في لعبه، فكيف إذا كان الخطر الذي نزل عليه هو بأس الله ﷻ وعقوبته الصاعقة، التي لا يستطيع أن يدفعها أشد ما يكون حذرًا، فكيف وهو يلعب؟!

وقد يقال: نحن نفهم أن الله ﷻ أراد هنا مجيء العذاب في أحد أجزاء الليل كله، ولكن لماذا اختار أن يُعبّر عن ذلك بوقت البيات حيث يكون الإنسان نائمًا؟ ونفهم أن الله ﷻ أراد مجيء العذاب في أحد أجزاء النهار كله، فلماذا اختار التعبير عن ذلك بوقت الضحى حيث يلعب الإنسان؟

الجواب: لأن الله ﷻ يريد أن يوقظهم من سكرة الغفلة، يريد أن يوقظهم من مرض الغرور، إنه يخبرهم أن العذاب قد يدهمهم في الوقت الذي يشتد فيه أمانهم، وأشد ما يكون المرء آمنًا وقت:

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ١٣).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ١٣).

البَيَات حينما يكون نائمًا، ووقت الضحى حينما يكون المرء لاعبًا، فهل نومه المطمئن يمنع عنه نزول البأس الذي يجلب معه البؤس؟! كلا.

هل لعبه في الضحى وضحكه حينها يمنع عنه نزول البأس الذي يجلب معه البؤس؟! كلا،

واضرب لذلك مثلًا بالعدو المتربص: إنه يهجم على عدوه أشد ما يكون غفلة وأمانًا، وكذلك: البأس الذي يهجم على المستكبرين أعظم ما يكونون آمنين.

وهذه الأسئلة تؤدي إلى نتيجة واضحة يصوغها السيد محمد رشيد رضا رحمه الله فيقول: "وَالْمُرَادُ: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يَأْمَنُوا لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، فَإِنَّ وُجُودَ النِّعَمِ لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى دَوَامِهَا، فَكَمْ مِنْ نِعْمَةٍ زَالَتْ بِكُفْرِ أَهْلِهَا، وَهَذَا مَا كَانَ يَجْهَلُهُ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾، فَرَأَوْا صُورَةَ الْوَاقِعِ وَجَهِلُوا أَسْبَابَهُ، وَأَمَّا الْحَاضِرُونَ فَلَا يُعْذَرُونَ بِالْجَهْلِ بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ لَهُمُ الْقُرْآنُ كُنْهَ الْأَمْرِ، وَسُنَنَ اللهِ فِي الْخَلْقِ، وَلَكِنَّ أَدْعِيَاءَ الْقُرْآنِ، قَدْ صَارُوا أَجْهَلَ الْبَشَرِ بِمَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَيَدَّعِي بَعْضُهُمْ أَنَّ سَبَبَ جَهْلِهِمُ الِانْتِمَاءُ إِلَى دِينِ الْقُرْآنِ!!"[1].

السؤال الثالث: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

الهمزة للسؤال الإنكاري التعجيبي، والفاء تفريعية، والمعنى: هل ظنوا أن عقوبتنا لهم لا تأتيهم بياتًا، وهم نائمون، ولا تأتيهم ضحى وهم يلعبون، فَتَرَتَّبَ على هذا الظن أن يأمنوا مكر الله عز وجل في كل الأوقات؟ أي: هل هم مجانين أم عندهم عهد من رب العالمين بذلك؟ أم ينكرون قيام الله على الكون، ولذلك أمِنوا؟

ولكن ما معنى كلمة ﴿مَكْرَ﴾؟ وما وجه جمال الأسلوب القرآني المتميز عندما استعمل هذه الكلمة ﴿مَكْرَ﴾؟

الجواب: المكر من مَكَرَ بِهِ يَمْكُر[2]، وأصل التمكير: احتكارُ الحبوب في البيوت، فإن كان للاستغلال السيئ، فهو المذموم، وإن كان كما فعل يوسف عليه السلام فهو المحمود، والمَكرُ بالفتح: سَقْيُ الأرض لتليينها، فهو نوع من التدبير أو الاحتيال المحمود عليها، فيقال: امكرُوا الأرضَ فإنها صلْبة ثم

(١) تفسير المنار (٩/٢٥- ٢٦).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٨١٩)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ٢١٠٢).

احْرثوها، وبذلك يظهر أن الْمَكْر يمكن تعريفه بأنه: التدبير الخفي لتحقيق أمرٍ قد يكون خيرًا، وقد يكون شرًّا، فيُستدرج فيه الممكور به إلى ما ينافي طبيعته أو إلى ما يحذره من الضر آخِرَ الأمر على هَيْئَةٍ يَحْسَبُها مَنفَعَةً.

وهذا قريب مما عرفه الراغب رحمه الله حين قرر أنه: "صرف الغير عمَّا يقصده بحيلة"[(١)]، وهو قريبٌ أيضًا من تعريف السيد رشيد رضا رحمه الله أنه: "التَّدْبِيرُ الْخَفِيُّ الْمُفْضِي بِالْمَمْكُورِ بِهِ إِلَى مَا لَا يُحْتَسَبُ"[(٢)].

(١) المفردات في غريب القرآن (ص٧٧٢).

(٢) تفسير المنار (٣/ ٢٥٩).

المكر بين المحمود والمذموم:

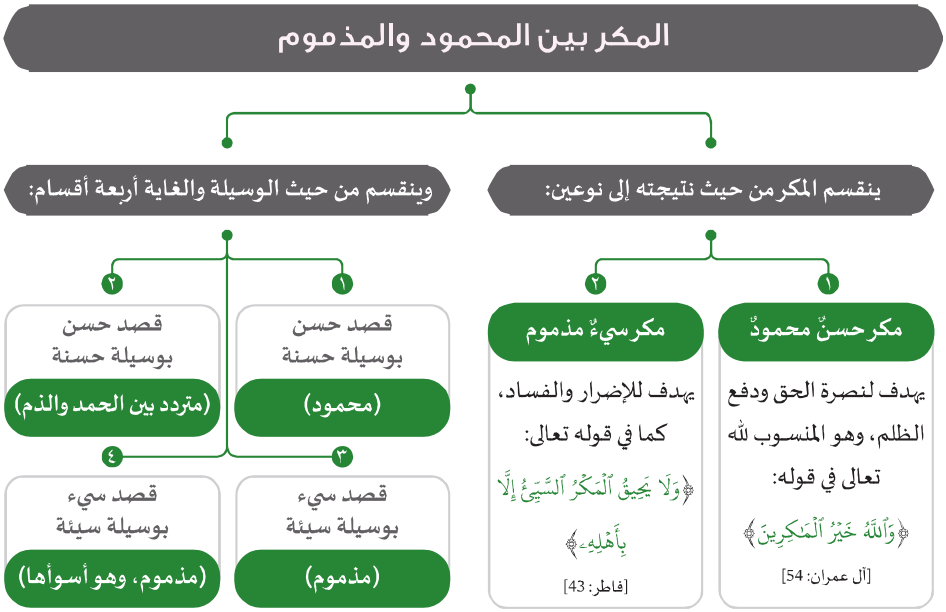

ومن هذه التعريفات نخلص إلى سؤال: كيف يوصف الله ﷻ بالمكر؟

للإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن يُعلم أن المكر باعتبار نتيجته وأثره ينقسم إلى قسمين:

الأول: مكر حسن ممدوح محمود: وذلك بأن يتحرّى من يُوصف بالمكر أن يفعل فعلًا جميلًا بمكره كأنْ ينصر الضعيف، ويدمر الظالم، وعلى ذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ومن أساليبه أن يُمهِل العدو، وينعم عليه إلى وقتٍ يدمره فيه.

والثاني: مكرٌ سيءٌ قبيح مذموم: وهو أن يتحرّى به فعلًا قبيحًا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: ٤٣]، فقيَّد المكر المذموم بالسوء، فوصفه بقوله: ﴿ٱلسَّيِّئُ﴾، ومن المكر السيء ما أشار إليه ربنا ﷻ في قوله: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾ [النمل: ٥١]؛ لأنهم أرادوا بمكرهم الإضرار بالصالحين، وإزالة الخير من الأرض.

وقال ربنا ﷻ في النوعين: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾ [النمل: ٥٠] أي: مذمومًا ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ [النمل: ٥٠] أي: ممدوحًا، "وقال بعضهم: من مكر الله ﷻ: إمهالُ العبد، وتمكينه من أعراض الدُّنيا، ولذلك قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: من وُسِّعَ عليه في دنياه، ولم يعلم أنَّه مُكِرَ به فهو مخدوعٌ عن عقله"[(١)].

ويمكن تقسيم "المكر" بالنظر إلى وسيلته وغايته إلى أربعة أقسام:

الأول: قد يكون لقصد حسن باستخدام وسيلة حسنة، وهذا أحسن أنواعه، وهو المنسوب إلى الله جل جلاله.

الثاني: قد يكون لقصدٍ حسن باستخدام وسيلة سيئة.

الثالث: قد يكون لقصد سيء باستخدام وسيلة سيئة.

الرابع: وقد يكون لقصد سيء باستخدام وسيلة حسنة، وهو أسوأ الأنواع.

فالنوع الأول محمود، والثاني: قد يحمد وقد يذم، والثالث والرابع مذمومان.

فقوله تعالى حكاية عن كلام فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ﴾ [الأعراف:١٢٣]، أي: تدبير باحتيال تهدفون منه تحقيق إخراج أهل المدينة منها، ومثل ذلك: ﴿وَإِذۡ

---

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (٧/ ٨٥)، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (١/ ٢٩).

يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]. فمكر الله ﷻ تدبيره الخفي للرد على المجرمين، وتدبيره فيه الحسنان: الهدف الحسن، والوسيلة الحسنى.

ولذلك نطلبه في دعاء النبي ﷺ في قوله: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ»(١).

ويكون معنى الآية: أفأمنوا تدبير الله ﷻ الخفي في إنزال العقوبة عليهم لمجرد شعورهم بالأمان في حياتهم واقتصادهم ومعاملاتهم ولعبهم وأكلهم وشربهم؟ فمن قال: إن الأمان دليل على رضى الرحمن؟ فالرحمن يعطي الدنيا للمسلم والكافر، والمظلوم والظالم، وبعد أن يقيم الحجة على الظالم يمهله، ثم قد يكون إمهاله وإعطاؤه مكرًا عظيمًا به إن لم يستدرك، ويتوب كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

والآن لنكمل الآية: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ قبل أن يجيبوا يأتيهم الجواب بنتيجة تقطع عليهم كل عناد: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، فكيف أخبرتنا هذه الفاء في قوله: ﴿فَلَا﴾ عن حقيقة هذه النتيجة؟

الجواب: الفاء في قَوْله: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ للترتيب والتفريع عما نفهمه مما سبق، والتَّقْدِيرُ: إذا أمنوا مكر الله فهم قوم خاسرون؛ إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

ومن هم القوم الخاسرون؟ وكيف ظهرت قوة هذه الكلمة ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ في موضعها؟

الجواب:

﴿ٱلۡقَوۡمُ﴾ أي: الشعب أو الجماعة الذين يقوم بعضهم لبعض مساعدة لأنفسهم، أو تنمية لمجتمعهم، أو قيامًا على أحوالهم، أو لإحداث الازدهار في أوطانهم، وذلك لتعدد مواصفاتهم، فالأصل في القوم أن يُعِين بعضهم بعضًا، ولكن الله ﷻ يصفهم بقوله: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، فبدلًا من أن تجعلهم

---

(١) أحمد (١٩٩٧) قال الترمذي (٦/ ١٥٣): هذا حديثٌ حَسَن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٥/ ٢٤٤).

قواهم ومواهبهم رابحين مفلحين فائزين، أدَّى بهم أمنهم من مكر الله، واعتمادهم على ذكائهم ومواهبهم وقواهم إلى الخسارة المحققة، ونفهم هذه الخسارة المحققة من اسم الفاعل المعرف في قوله: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الراسخون في الخسارة، فهم "الَّذِينَ كانَتْ قُواهم سَبَبًا لِعَراقَتِهِمْ في الأفْعالِ الضَّارَّةِ والخِصالِ المُهْلِكَةِ"(١)،

فكلمة ﴿ٱلْقَوْمُ﴾ أقوى في التعبير عن الخسارة هنا؛ لأن الأصل أنهم يقومون بالانتصار لبعضهم، والحماية لمشروعاتهم المشتركة، لكن الواقع مختلف، فهم الخاسرون بسبب أمنهم من مكر الله ﷻ.

وكلمة (خَسِرَ) تصوِّر مقدار المصيبة التي وقعوا فيها، وعندما تأتي بهذه الكلمة في صيغة اسم فاعل (خاسر) ثم تضيف إليها (ال) التعريفية، وتسمعها في مثل هذا التركيب ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، هنا تشعر بأن الخسارة ليست محدودة، ولا معدودة، ولا محتملة، بل هي خسارة كلية، فالأصل أن الخسارة مثل الْخُسْرِ وَالْخُسْرَانِ، كلمة تدل عَلَى النَّقْصِ، ولكن النقص قد يكون جزئيًا، فيخسر الإنسان مثلًا نصف ما يملك، ولكن هذا التركيب القوي ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ يبصرنا أنهم فقدوا كل شيء، واقتضت خسارتهم: الهلكة، والغَبن، وعدم الظفر بالمطلوب، وعدم الانتفاع بالشيء، والعقوبة، والنقص المادي، والضعف، وذهاب القيمة والكرامة.. كل ذلك دخل في معنى هذه الآية.

ومنه قوله: ﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤] أي: عَجَزة، كالتَّاجِرِ الذي ضاع رَأْس مالِهِ بِسُوءِ تَصَرُّفِهِ.

ويظهر لي أن الخسارة ليست مجرد عدم الانتفاع بل نقصان ما كان عند الإنسان، ثم قد ينقص حتى يصبح ما عند الإنسان وبالًا عليه بدلًا من أن يكون رأس ماله الذي يعينه، فجسده يخسره في الآخرة ليصبح أداة شعوره بالعذاب، تصور الخسارة الهائلة: يصبح الجسد أداة تذوقه للألم، ويخسر أهله وولده فبدلًا من أن يكونوا مصدر ربحه في الآخرة بأن يفوزوا هم بالجنة، يصبحون محل مساءلته عنهم: من أين أطعمهم؟ وكيف علَّمهم؟ ثم قد يكونون سبب تعذيبه؛ لأنه ظلمهم، أو ضيعهم في أجسادهم أو عقولهم أو قلوبهم، وقد يكونون سببًا لزيادة تعذيبه. نسأل الله العافية.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ١٣).

بصيرة: الآمن من مكر الله خاسر، فعنده القوة الجسدية، والمادية.. ربما كان عنده الأتباع والثروات والطاقات والجنود والأقوات والقُوَّات، فيطمئن إلى الوضع السليم الحاضر، ويُعرض عمن يذكِّره بالعواقب القادمة المحتمة، ويطمئن إلى ذكائه وتقديره وتدبيره، فإذا به يخسر كلَّ ما عنده بسبب الأمن من مكر الله، ثم يزيد على ذلك، فيصبح ما عنده وبالًا عليه وتدميرًا لحاله.

قال السيد رشيد رضا ﷺ: "وَإِذَا كَانَ أَمْنُ الْعَالِمِ الْمُدَبِّرِ وَالصَّالِحِ الْمُتَعَبِّدِ مِنْ مَكْرِ اللهِ تَعَالَى جَهْلًا يُورِثُ الْخُسْرَ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ، وَهُوَ مُسْتَرْسِلٌ فِي مَعَاصِيهِ اتِّكَالًا عَلَى عَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]"[(١)].

وهنا يأتي سؤال يتكرر: لماذا التحذير من مكر الله ﷻ مع أن الله ﷻ غفور رحيم، ووهَّاب توَّاب، وعظيم حليم؟

الجواب: لأن الله ﷻ حق، كما أنه توَّاب وهَّاب، فهو شديد العقاب، وكما أنه غفور رحيم فهو سريع الحساب، وإلا لكان معنى هذا الكلام أن الله ﷻ يأمر عباده بالأمر، فيعصون متكلين على رحمته، فيكون إبليس في تمرده وعصيانه ربَّه على حقٍّ في هذا الكلام، وأعوذ بالله من هذا التفكير. قال قتادة ﷺ: "بَغَتَ القومَ أَمرُ اللهِ، وما أَخَذَ اللهُ ﷻ قومًا قَطُّ إلا عندَ سَلْوَتِهِم وعِزِّتِهِم ونَعْمَتِهِم، فلا تَغتَرُّوا باللهِ إنهُ لا يَغْتَرُّ باللهِ إلا القومُ الفاسقُونَ"[(٢)].

وعن الحسن ﷺ يحلف بالله الذي لا إله إلا هو: "ما مضى مؤمن قطُّ ولا بقي إلا وهو من النفاق مشفق، ولا مضى منافق قطُّ ولا بقي إلا وهو من النفاق آمن"[(٣)].

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٢٦).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٩١).

(٣) تعظيم قدر الصلاة للمروزي (٢/ ٦٣٤)، وحسَّن محقق الكتاب إسنادَه.

قال الزمخشري ﵀: "فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله، كالمحارب الذي يخاف من عدوّهِ الكمين والبيات والغِيلة"، وعن الربيع بن خثيم، أن ابنته قالت له: مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام -يعني يقوم الليل-، فقال: يا بنتاه، إنَّ أباك يخاف البيات[1]، -قال الزمخشري معلِّقًا:-أراد قوله: ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ [الأعراف: ٩٧]"[2].

بصيرة: إنه الله علا وقهَرَ، وعَزَّ و اقتَدَر، فسبحانَهُ من إلهٍ عظيمٍ لا يُماثَلُ ولا يُضاهى ولا يُدركُهُ بَصَر، وتعالى مِنْ قادرٍ مُحيطٍ لا تُنجي منه قُوَّةٌ ولا مَفَر، وتقدَّسَ من مَلِكٍ رحيمٍ يُلْجئُ مَنِ انطَرَحَ بين يديهِ و انكَسَر، نَشَرَ كَرَمَهُ على كافةِ المخلوقينَ فَعَمَّ و انتَشَر، ورزقَ جميعَ المخلوقاتِ في لُججِ البحارِ وأجوافِ الحَجَر، هو القيومُ قام بخلائقهِ ولا يَؤُدُه حفظُهما وهو العليُّ بذاتهِ وقَدْرِهِ وقهْرِهِ على مَن استكبر، وهو الله لا إله إلا هو وحدَهُ لا شريكَ له على رغمِ أنفِ من جَحَدَ به وكَفَر.

فإن قلت: ما علاقة الاستدراج بالمكر؟ وكيف يكون مكر الله بالغافلين؟

الجواب: قال الفرَّاءُ ﵀: "والمكرُ من الله استدراجٌ، لا على مكرِ المخلوقين"[3]، وقال شيخ الإسلام ابنُ تيمية ﵀: "ومَكْرُهُ أنْ يُعاقبَهُ على الذنبِ لكن من حيثُ لا يشعر"[4] أي يعاقبه، وهذا الغافل لا يظن أنها عقوبة، والهيتمي ﵀ يذكر موضحًا كيف يكون الأمن من مكر الله، فيقول: "بالاسْتِرْسالِ في المعاصي معَ الاتِّكالِ على الرَّحمةِ"[5].

---

(١) الورع للمروزي (ص: ٨٢).

(٢) تفسير الكشاف (٢/ ١٣٤).

(٣) معاني القرآن للفراء (١/ ٢١٨).

(٤) مختصر الفتاوى المصرية (ص٨٤).

(٥) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ١٤٥).

قال ﷺ: «إذا رأيتَ اللهَ يُعطي العبدَ من الدُّنيا على مَعاصيهِ ما يُحِبُّ، فإنما هوَ استِدْراجٌ»، ثُمَّ تَلا رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤])[1].

وعَنِ الْحَسَنِ رحمه الله قَالَ: "مَنْ وُسِّعَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرَ أَنَّهُ يُمْكَرُ بِهِ فَلا رَأْيَ لَهُ، وَمَنْ قُتِّرَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرَ أَنَّهُ يُنْظَرُ لَهُ فَلا رَأْيَ لَهُ"، ثُمَّ قرَأَ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ۝٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥]، قال الحسن رحمه الله: "مُكِرَ بالقَومِ ورَبِّ الكعبةِ، أُعْطُوا حاجَتَهُم ثُمَّ أُخِذُوا"[2].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزمنَ الطويلَ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ، ثُمَّ يُختَمُ لهُ عَمَلُهُ بعمَلِ أهلِ النارِ -فهذا مكر به نسأل الله العافية- وإنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزمنَ الطويلَ بعَمَلِ أهلِ النارِ، ثُمَّ يُختَمُ لهُ عَمَلُهُ بعمَلِ أهلِ الجنَّةِ»[3]، فهذه رحمة به لأمر خاص بينه وبين الله عز وجل.

فالأمن من مكر الله عز وجل من الذنوب العظيمة، ولكن ما مكانته بين الذنوب؟

الجواب: ذكر ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه الأمن من مكر الله من الكبائر، فقال: «الكبائِرُ: الشِّركُ باللهِ، واليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، والقنُوطُ من رحمةِ اللهِ، والأمنُ من مَكْرِ اللهِ»[4].

وعدَّه الإمام ابن القيم رحمه الله ضمنَ الكبائر المتعلِّقة بالقلبِ، ثمَّ قال: "هِيَ أَشَدُّ تحريمًا منَ الزِّنى، وشُرْبِ الخَمْرِ وغيرِهما منَ الكبائرِ الظاهرةِ، ولا صلاحَ للقلبِ ولا للجسدِ إلا باجتنابها والتوبةِ منها"[5].

---

(١) أحمد (١٧٣١١) وحسّنه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (١٤٧٧) بعد أن عزاه لأحمد والطبراني والبيهقي في الشُّعَب.

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا (ص:٣٧)، تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٩١).

(٣) مسلم (٢٦٥١).

(٤) المعجم الكبير للطبراني (٩/١٥٦)، وصحَّحه الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١/١٠٤).

(٥) مدارج السالكين (١/ ١٧٢).

وقال عبدالعزيزِ بنُ أبي رَوَّادٍ: حضَرْتُ رجُلًا عندَ الموتِ يُلَقَّنُ لا إلهَ إلا اللهُ، فقالَ في آخِرِ ما قالَ: هُوَ كافرٌ بما تَقُولُ، وماتَ على ذلكَ، قال فسألتُ عنهُ، فإذا هُوَ مُدمِنُ خَمْرٍ. فكانَ عبدُالعزيزِ يقولُ: اتقُوا الذُّنوبَ، فإنها هيَ التي أوْقَعَتْهُ"[١].

"وبكَى بعضُ الصحابةِ عندَ مَوتِه، فسُئلَ عن ذلكَ فقالَ: سَمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ اللهَ تعالى قَبَضَ خَلْقَهُ قَبْضَتينِ، فقالَ: هؤُلاءِ في الجنَّةِ، وهؤلاءِ في النارِ»، ولا أدرِي في أيِّ القبضَتَينِ كُنتُ؟[٢]. قالَ بعضُ السلفِ: ما أبكَى العُيُونَ ما أَبكاها الكِتابُ السابقُ!"[٣]، أي: أن القدر السابق قد حكم على العباد، وهذا لا يعني: زوال الاختيار، بل الاختيار قائم، والقرار يعتمد على كل إنسان، فلا يُجْبَرَ أحدٌ أن يعصي ليدخل النار، ولا يُكْرَه أحد أن يطيع ليدخل الجنة، ولكن العاقل لا يعتمد على كلام الجاهل الذي يجعله آيسًا من رحمة الله ﷻ.

"وقالَ سُفيانُ ؒ لبعضِ الصالحينَ: هلْ أبكاكَ قطُّ عِلمُ اللهِ فيكَ؟ فقالَ لهُ ذلكَ الرَّجُلُ: تَرَكَني لا أَفرَحُ أبَدًا، وكانَ سُفيانُ يَشتَدُّ قَلَقُهُ منَ السوابقِ والخواتيمِ، فكانَ يَبكِي ويقُولُ: أخافُ أنْ أكونَ في أُمِّ الكتابِ شَقِيًّا، ويَبْكِي، ويقولُ: أخَافُ أنْ أُسْلَبَ الإيمانَ عندَ الموتِ"[٤]، والمقصود خوفه من مكر الله ﷻ به لو سلفت منه الذنوب، والله ﷻ يستره كل ذلك، وهو يأبى أن يراجع نفسه.

ولذا اعترف الظلمة بأنهم سبب شقاء أنفسهم، فقال الظالمون من أهل التجارة الزراعية بعد أن أخذ الله ﷻ مالَهم: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١﴾ [القلم: ٢٩-٣١]، ومكر الله ﷻ بالناس يذكر بما قاله محمد المجذوب:

أرى النَّاسَ مخدوعًا وراء مُدَلِّسٍ ... يسيرُ به عمدًا إلى الهلكاتِ
وتُجَّار أقلامٍ أباحوا وجوهَهم ... لكلِّ دعيٍّ في الرِّجال وعاتي
تعبدُهم وهْمُ المنافعِ فارتموا ... سجودًا على الأعتاب والحضراتِ

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٣).
(٢) مسند أحمد برقم (١٧٥٩٤)، قال الأرناؤوط وغيره: إسناده صحيح.
(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٣).
(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٣).

فكم خائنٍ باع البلادَ سَمَوْا به ... إلى الأَوْج فهو الفارجُ الكرباتِ!

وكم ملحدٍ مستهترِ العِرضِ قد غَدَا ... بسحرهمُ يُدعى أبا البركاتِ!

وكم سارقٍ قوتَ المساكين صَوَّروا ... على الطِّرسِ منه مبدع الحسناتِ!

أراقوا على أقدامه المدح خشَّعًا ... كما عكف الغاوون حول (مناةِ)

وكم (باقرٍ) صدرَ الحنيفةِ باسمها ... أباح حِمى الإسلامِ للشبهاتِ

ويوم يعض الظالمون أَكُفَّهُم ... وقد وجدوا أعمالهم حسراتِ

ويوم يودُّ المجرمون لوَ انَّهم ... على دربِنا ضَرْبٌ من الحشراتِ

ترى قتراتِ الذُّل فوق وجوهِهم ... وقد طبعت من عارها بسماتِ[1]

والآن عُدْ بنا إلى هذه الأسئلة الثلاثة المتتابعة ذات الهدير الهائل:

السؤال الأول: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ أيْ: مُجْتَمِعِينَ أوْ مُنْفَرِدِينَ فَإنَّهُ لا فَرْقَ عِنْدَنا في ذَلِكَ.

السؤال الثاني: ﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ أيْ: مُجْتَمِعِينَ أوْ مُنْفَرِدِينَ فَإنَّهُ لا فَرْقَ عِنْدَنا في ذَلِكَ.

السؤال الثالث: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾.

هل هذه الأسئلة مجرد تكرار فهي بمعنى واحد، أو كلٌّ منها له معنى مستقل؟

الجواب: اتضح أن كلًّا من السؤالين الأولين يحمل معنى مستقلًا، فليس فيهما تكرار، ومجيئهما على هذه الهيئة، ثم مجيء السؤال الثالث يحقق أكثر من هدف:

(١) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد (٥٠-٥١)، السنة (١٣)، رمضان ١٤٠١هـ.

الأول: التأثير على السامعين بالتعميم في الأحوال والأوقات، فبعد تخويفهم من أن يأتيهم المكر بياتًا وهم نائمون، أو ضحى وهم يلعبون يأتي السؤال الأعم: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾؟ فلم يقيده بوقت ولا حال، والتقدير: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ أن يأتيهم في أي وقت أو في أي حال.

الثاني: التأثير على السامعين بالتهويل من هذا الأمر العظيم، وهو ﴿مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ فماذا يظنون مكرَهم وتدبيرَهم وتقديرهم وذكاءهم أمامه؟ ماذا يظنون إمكاناتهم وقدراتهم أمامه؟

الثالث: السؤال الإنكاري التعجُّبِي هنا عن مكر الله ﷻ، وليس عن البأس، فالسؤالان الأولان عن بأس الله ﷻ، وهذا السؤال الثالث عن مكر الله ﷻ.

الرابع: إخبار الله ﷻ القوى المتعاظمةَ المغترةَ بمدى حقارة قوتها وتدبيرها وتخطيطها أمام قوة الله ﷻ.

إن بأس الله ﷻ لا يأتي فقط في وقت البيات وهم نائمون، ولا في وقت الضحى وهم يلعبون، بل قد يأتيهم بأس الله ﷻ بعد أن يَمْكُرَ بهم في أي وقتٍ من الأوقات، وهل يظنون أنهم يستطيعون أن يقفوا أمام بأس الله ﷻ سواء أكانوا نائمين أم صاحين، لاعبين هازلين أم جادين، ضعفاء أم أقوياء؟ وإنما ذكر الله ﷻ البيات والنوم، والضحى واللعب؛ ليحذرهم ويثير انتباههم إلى خطر بأس الله ﷻ الذي لا يمنعه أمانهم، فكيف لو كانوا خائفين؟!

فهل تملكتهم سكرة الأمن حتى نسوا أفْعال الله المُرْهِبَةَ بِالمَضارِّ والمُرَغِّبَةَ بِالمَسارِّ؟[1]، لقد عتوا وبغوا واستكبروا ونسَوا عظمة الله وحلمه عليهم.

وتصوَّرْ! هذه الآيات تنزل على النبي ﷺ فيُسمِعُها المعاندين من قريش والعرب، والمؤمنين من أتباعه.. ما الشعور الذي انتاب الفريقين؟

أما المكذبون فيقذف في قلوبهم الخوف والمهابة والرعب من أن يحدث لهم ما حدث لتلك الحضارات التي دُمِّرت، وأما المؤمنون فيعلمون أن الاضطهاد الذي يلقونه مؤقت بأجل يعلمه الله ﷻ، ويعلمون أن العناية الإلهية تحفُّ بهم، وتحيط بأعدائهم.

---

(١) نظم الدرر (١٢/٨).

ثم ننتقل إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، فجاء هذا السؤال الرابع بعد الأسئلة الثلاثة التي وردت في الآيات السابقة، فما المناسبة والاتصال بين هذا السؤال وما قبله؟ وكيف أنبأتنا الواو عن اتصال هذه الآية بما قبلها؟

الجواب: الأسئلة الأربعة تسمعها ذات وقعٍ قويٍّ محاصِر، وإيقاعٍ متتابع متكاثِر، فتحاصر الغافلين ليستيقظوا، وتحذِّر المتيقظين ليعملوا بموجب علمهم، ويُفَصِّلُ السؤالان الأولان معنى كلمة ﴿بَغْتَةً﴾ التي جاءت في الآية السابقة ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥]؛ إذ إن ذلك يعني أن الزمان يحيط بذرية آدم عليه السلام، وتبقى الحضارات محاصرة بعدم خروجها عن الليل والنهار، فمهما عملوا هل يمكن أن يخرجوا من حصار الزمان؟

فالآية الأولى: بينت احتمال أن يأتي بأس الله عز وجل، أي: عذابه النابع من قدرته وقوته في أي جزء من أجزاء الليل، وعبر عن ذلك بحال البيات فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧]، والبيات يكون عادة عند النوم، وأراد التعبير بذلك عن الليل كله.

والآية الثانية: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨] بينت احتمال أن يأتي بأس الله عز وجل، أي: عذابه النابع من قدرته وقوته في أي جزء من أجزاء النهار، وعبر عن ذلك بحال الحركة في الضحى، فقال: ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ وأراد النهار كله.

ثم حذر في السؤال الثالث من مكر الله الشامل الذي يحلُّ بالماكرين، فقال: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وهنا نسأل: عرفنا السُّنَّة التاسعة، وهي: أعظم علامات الخسارة الذاتية والحضارية: الأمن من مكر الله عز وجل، فما السُّنَّة العاشرة؟

الجواب:

السُّنَّة العاشرة: تتابع الذنوب يؤدي إلى طبع القلوب، أي: تطبعها على المعاصي، فطبع القلوب يعني إغلاق الأسماع عن نصح الناصحين، وحينها لا يبقى إلا انتظار تحقق المشيئة الإلهية في عقاب المذنبين، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١٠٠﴾ [الأعراف: ١٠٠].

وإذا أردنا أن نبصر بصائر إجابة هذا السؤال لا بد أن نفسر كلماته:

الكلمات (١-٢): ﴿أَوَ﴾ فهمزة الإنكار والتعجيب دخلت على واو العطف ﴿أَوَلَمْ﴾ لتتابع الأسئلة المنكرة المعجِّبَة من عدم تحريك الذرية الآدمية لعقولها، وتنكرَ عليهم عدم تفكيرهم الجادِّ بحالهم الحاضر ومصيرهم القادم.

الكلمة (٣): ﴿لَمْ﴾ تخبرنا بنفي الحال الذي ينبغي أن يصيروا إليه، فهم قد رأوا بأس الله ﷻ في غيرهم، وكان يجب أن يدفعهم ذلك إلى التوبة، لكنهم لم يفعلوا.

الكلمة (٤): ﴿يَهْدِ﴾ أي: يرشد إرشادًا يوصل إلى فائدة خاصة.

الكلمة (٥): ﴿لِلَّذِينَ﴾ اسم موصول، وهو من ألفاظ العموم، فيدخل فيه: كل فرد، وكل إنسان ورث شيئًا عمن قبله، ويكون الكلام عن جميع الأفراد والأمم والحضارات الباقية التي جاءت في أعقاب أمم وحضارات بادت أو أصابها الذل، ويشمل ذلك الحضارات التي نالت السيادة بعد ذلةٍ مَن سبقهم أو زوالهم - حتى وإن لحقهم الذل فيما بعد - كما يتضمن ذلك أيضًا الأفراد والحضارات القائمة في وقتنا الراهن.

الكلمة (٦): ﴿يَرِثُونَ﴾:

من معاني الإرث وأنواعه

(١) الأموال المنتقلة من الميّت لمن يرثه: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ [النساء: 11]

(٢) ما تؤول المسؤولية الكاملة فيه إلى من يأتي بعد المؤسّس، ومنه قول النبيّ ﷺ: «كُونُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ إِبْرَاهِيمَ» (أحمد: 17233، وحسّنه الترمذي: 883)

(٣) الأرض التي تملّكها الأقوام الجدد بعد هلاك السابقين أو ذلّتهم: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ [الأحزاب: 27]

(٤) كلُّ ما يصل إلى الآخرين دون أن ينازعهم فيه أحد: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الزخرف: 72]

وهنا نسأل: ما وجه قوة كلمة ﴿يَرِثُونَ﴾ في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾؟

الجواب: ﴿يَرِثُونَ﴾ كلمة اشتقت من (وَرِثَ)[1]، والوِرَاثَةُ والإِرْثُ: انتقال أمرٍ مادي أو معنوي من السابق إلى اللاحق من غير تعب، ومن غير عقد، ولا ما يجري مجرى العقد، ومن غير اختيار كما قَالَ عمرو بن كلثوم عن خصال الفخر التي يتفاخر بها:

وَرِثْنَاهُنَّ عَنْ آبَاءِ صِدْقٍ وَنُورِثُهَا إِذَا مِتْنَا بَنِينَا[2]

فيدخل في معنى (الإرث) أنواع من أهمها:

النوع الأول: الأموال المنتقلة من الميّت لمن يرثه، فيقال للأمور المادية: مِيرَاثٌ وإِرْثٌ ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ [النساء: ١١] يعني: ورثوا ماله.

النوع الثاني: ما تؤول المسؤولية الكاملة فيه إلى من يأتي بعد المؤسس أو المكتشف أو المظهِر، فقد قال رسول الله ﷺ: «كونوا على مشاعركم هذه، فإنكم على إرثٍ من إرث إبراهيم»[3] أي: على ما انتقل إليكم مما أظهر معالمَه إبراهيم عليه السلام.

النوع الثالث: الأرض التي تملّكها الأقوام الجدد بعد هلاك السابقين أو ذِلتهم كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] أي: تصير إليهم مهما بقي من ينازعهم فيها.

النوع الرابع: يطلق الإرث على كل ما يصل إلى الآخرين دون أن ينازعه فيه أحد، ولذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الزخرف: ٧٢].

فكلمة ﴿يَرِثُونَ﴾ في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ [الأعراف: ١٠٠] أي: تصير إليهم الأرض من بعد أهلها السابقين، يتملكونها فلا ينازعهم فيها أحد، ويلتذذون بما فيها من بُحْبُوحَةِ

---

(١) مقاييس اللغة (٦/ ١٠٥).

(٢) المعلقات العشر وأخبار شعرائها (ص: ١١٧).

(٣) مسند أحمد (١٧٢٣٣)، قال الترمذي (٨٨٣): حَدِيثٌ حَسَنٌ.

العَيْشِ، والقدرة على التصرف، لكنهم يغترون بهذا، وينسون أن ذلك لا بد أن يكون إلى أجل مسمى عند الله كما كان لمن سبقهم، وقد أخبر الله ﷻ بتكملة هذا المفهوم على لسان موسى عليه السلام، فقال: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فلنستعرض بعضًا من الحضارات التي كانت قائمة أو عرفها الناس عند نزول هذه الآية:

الآية تتكلم عن الأمم والحضارات السابقة، وتخاطب في الوقت ذاته الأمم والحضارات القائمة، فيشمل ذلك: الأمم والحضارات الأربع التي جاءت بعد قوم نوحٍ عليه السلام، فإن دولة (عاد) جاءت بعد قوم نوح عليه السلام، وورثت التحكم في الأرض المحيطة بها، فينكر الله ﷻ عليهم كأنه يخاطبهم، ويُعَجِّب مَنْ بعدهم مِن حالهم؛ إذ لم يعتبروا بمن مضى قبلهم، وهكذا ثمود بعد عاد، وهكذا قوم لوط بعد من سبقهم، وهكذا أصحاب مدين بعد من كان قبلهم.

ويشمل ذلك: قريش التي سادت بعد جُرْهُم وخُزاعة في مكة، ونصارى نجران واليمن الذين سادوا بعد ملك اليهود في تلك الأنحاء، وقبائل ربيعة التي سادت بعد قبائل كندة في نجد وشرق الجزيرة العربية وشمالها، فسكنت عبد القيس المناطق الشرقية، وبنو حنيفة في اليمامة، واستقرت تغلب في المناطق المتاخمة للعراق وشرقي الأردن والشام.

واستقرت قبائل اليمن بعد مملكة سبأ ومملكة معين، فكل هؤلاء خلفاء خلفوا مَن قبلهم، وقد ذكَّرهم أنبياؤهم بمزية هذا الاستخلاف، فكانوا يقولون لهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

الكلمة (٧): ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾، وهي اسْمُ جِنْسٍ صادِقٌ عَلى كل أرضٍ تورث، فالمَعْنى: أوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ أرْضًا مِن بَعْدِ زوال مُلْك أهْلِها عنها، فيصبحون ملّاكها يتحكمون فيها تَحَكُّم الوارث في مال مُوَرِّثه[1].

الكلمات (٨-١٠): ﴿مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ أي: من بعد أصحابها الذين هم أهلها إما لأنهم تَمَلَّكُوها، أو عاشوا فيها، أو سيطروا على الأمر والنهي فيها.

---

(١) ينظر. التحرير والتنوير (٩/ ٢٦).

فهذا التهديد للأمم التي بقيت بعد فناء الحضارات السابقة كأن الله ﷻ يقول لهم: لقد استبان لكم حالُ المستكبرين من الأمم السابقة مُجْمَلًا ومُفَصَّلًا، لقد أخبركم التاريخ كيف تداولت عليهم الأيام بِالبَأْساءِ والضَّرّاءِ. لقد أخبركم التاريخ كيف تبدلت بهم الأيام فصاروا بعد الذلة والقلة والبداوة والخوف سادة وقادة... رأيتم الحفاة العراة رعاء الشاء قد سادوا وشادوا يتنافسون في بناء البروج الشاهقة، بنفوس متفاخرة واثقة، أفلا تعتبرون بمن قبلكم؟

الكلمات (١١-١٥): ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾:

وسنسأل هنا: فما وجه قوة هذه الكلمات المباركات في المعاني التي تدل عليها؟

الجواب:

(أنْ) مُخَفَّفَةٌ مِن (أنَّ)، واسْمُها ضَمِيرُ الشَّأْنِ، وجُمْلَةُ (لَوْ نَشاءُ) خَبَرُها، و (أن) وما بَعْدَها يؤول بِمَصْدَرٍ مُنْسَبِكٍ، والتقدير: أوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأرْضَ مِن بَعْدِ أهْلِها ثُبُوتُ هَذا الخَبَرِ المُهِمِّ وهو لَوْ نَشاءُ أصَبْناهم بِذُنُوبِهِمْ.

والمَعْنى: أعَجِبُوا كَيْفَ لَمْ يَهْتَدُوا إلى أنَّ تَأْخِيرَ العَذابِ عَنْهم هو بِمَحْضِ مَشِيئَتِنا، وأنَّهُ يَحِقُّ عَلَيْهِمْ عِنْدَما نَشاؤُهُ [1].

﴿لَّوْ نَشَآءُ﴾ أي: لو أردنا أن نصيبهم بسبب ذنوبهم ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ بسببها، فعدمُ إصابتهم بسبب ذنوبهم مردُه إلى مشيئة الله ﷻ، وليس لأنهم لا يستحقون العذاب.

بصيرة: ينذر الله ﷻ الأمة الإسلامية وكلَّ القوى الصالحة والمستكبرة هذا الإنذار الشديد، فيخبرهم أنه لا يوجد لهم ضمانٌ ولا عهدٌ يعطيهم امتيازًا عن الأمم السابقة في موضوع السنن الكونية والاجتماعية، فإذا أصروا على مخالفة عهود الإيمان والتقوى فسيحلُّ بهم ما حلَّ بالأمم قبلهم، والذي يؤخر ذلك: المشيئة الإلهية، فمتى شاء الله أن يُعَذِّب عَذَّب، ومتى شاء أن يصرف العذاب صرف.

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٨).

وظهر لنا أن الفعل ﴿يَهۡدِ﴾ فاعله في قوله: ﴿أَن لَّوۡ نَشَآءُ﴾ والتقدير: أو لم يهد للذين يخْلُفون من سبق قبلهم في ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن، وهو: أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم، وأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورِّثين، وإنما عدَّى فعل الهداية باللام لأنه بمعنى التبيين.

﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ﴾ أيْ: أولم يُبَيِّنْ هذا الأخذُ الشديد للأمم والحضارات السابقة.. أولم يبين للأمم والحضارات اللاحقة، أولم يدلهم ويرشدهم أن لو نشاء أصبناهم كما أصبنا تلك الحضارات والأمم.

لماذا أتى باللام في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ﴾ كان يمكن أن يكون التعبير: أولم تهد مشيئتُنا الذين يرثون الأرض بدلًا من كلمة ﴿لِلَّذِينَ﴾؟

الجواب: اللام للاختصاص والاستحقاق، فالذين ينبغي أن ينتفعوا من الهداية هم المخاطبون وليس الهادي، فتذكروا أن الله ﷻ هو الهادي، وقد نبهكم أن تنتفعوا مما ترون حولكم من الأحداث، فتهتدوا بها في إدارة حياتكم، ولا تظنوا أن الله ﷻ عندما يريد هدايتكم ينتفع بشيءٍ من ذلك، كما لم ينتفع بشيء عندما خلقكم أو رزقكم، فكل الهداية راجعة لصالح المهتدي لا الهادي.

وهذا يذكرنا دومًا بحديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»(١).

---

(١) مسلم (٢٥٧٧).

وقد تسأل: مالفرق بين الرؤية والهداية ؟

الجواب:

بصيرة: تأتي كلمة (يهدي) في مواضع للنظر العقلي في أحداث التاريخ، ومقارنتها بالواقع مثل هذه الآية ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، بينما تأتي كلمة (يروا) للنظر الحقيقي المادي الذي يكون بالعين فيما حولنا؛ إما من الآثار، وإما من الأقوام، ثم نُعمِلُ هذا النظر في الأحداث المصاحبة، ومن ذلك مثلًا قول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات: ١٣٧]. فقارن هذا بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ [الرعد: ٤١].

فمن نقصان الأرض: هلاك الأمم، وذهاب دولها.

بصيرة: الرؤية تقتضي ابتداء النظر المادي المباشر، ثم البحث في العقل، أما الهداية، فتقتضي التفكر في الو اقع ليرشدنا ذلك إلى ما ينبغي عمله.

في قوله تعالى: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ﴾ ما وجه قوة كلمة ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ في هذا الموضع؟

الجواب:

﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ أي: أخذناهم، فعذبناهم بأن أنزلنا عليهم مصيبة، والتعبير هنا بكلمة ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ قويٌّ جدًّا، وذلك لأن هذه الكلمة مشتقة من الإصابة، والإصابة تعني وقوع الشيء في مكانه الصحيح، فلا تنزل عليهم المصيبة إلا وهم يستحقون نزولها، وزاد الله ﷻ ذلك بيانًا فقال: ﴿بِذُنُوبِهِمْۚ﴾ أي: بسببها، وكلا الكلمتين تظهران لنا عدل الله جل في علاه حينما يعذب الأمم.

وأصل (أصبنا): كلمة (صَوَبَ)[1]، وهي تدل عَلَى وصول شَيْءٍ إلى مكانه المناسب الصحيح الذي يستقر فيه، ويتسق مع بقية الأمور، ومِنْ ذَلِكَ الصَّوَابُ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، كَأَنَّهُ أَمْرٌ نَازِلٌ مُسْتَقِرٌّ قَرَارُهُ، وَهُوَ خِلَافُ الْخَطَأِ، وَمِنْهُ الصَّوْبُ، وَهُوَ نُزُولُ الْمَطَرِ، وَالنَّازِلُ يسمى صَوْبًا أَيْضًا، والصَّيِّبُ:

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٣/ ٣١٧).

السَّحَابُ ذُو الصَّوْبِ، وهو النزول إلى مواضعه التي أمر الله ﷻ أن ينزل إليها بحسب الرزق الذي قسمه في الأرض، والمصيبة اختصَّت بالشيء المؤلم نحو: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وذلك لأن الإصابة وصول الشيء إلى موضعه الصحيح، فإن جاء في الشر، فذلك صحيح في التقدير الإلهي إما لأنه يكون ابتلاء وإما لأنه يكون عقوبة.

فغهمنا أن جملة: ﴿أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾ أي: أوقعنا عليهم المصيبة التي تأخذهم فلا تخطئ مكانهم، وذلك بسبب ذنوبهم التي يقترفونها، وماذا يعني دخول ﴿لَّوۡ﴾ عليها؟

الجواب:

(لَو) سبق أن قررنا أنها تبصِّرنا بثَلَاثَة أُمُور: عقد السَّبَبِيَّة والمسببية، وكونهما فِي الْمَاضِي وَامْتِنَاع السَّبَب، وأما الجواب وهو النتيجة فقد يمتنع، وقد لا يمتنع، فيكون المعنى: لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، فهذا سبب، والنتيجة محذوفة والتقدير: لفعلنا ذلك، ولكننا لم نشأ أن نصيبهم في وقتٍ ما، فلم تقع عليهم العقوبة، ففعل ﴿نَشَآءُ﴾ "فِعْلُ الشَّرْطِ مضارع، ولكنه في مَعْنى الماضِي كما يقرر ابن عاشور رحمه الله، إذْ لا يَجُوزُ اخْتِلافُ زَمَنَيْ فِعْلَيِ الشَّرْطِ والجَوابِ، فَتَقْدِيرُ قَوْلِهِ: ﴿لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم﴾ انْتَفى أخْذُنا إيّاهم في الماضِي بِذُنُوبِ تَكْذِيبِهِمْ، لِأجْلِ انْتِفاءِ مَشِيئَتِنا ذَلِكَ لِحِكْمَةِ إمْهالِهِمْ لا لِكَوْنِهِمْ أعَزَّ مِنَ الأُمَمِ البائِدَةِ أوْ أفْضَلَ حالًا مِنهم، كَما قالَ تَعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ [غافر: ٢١] الآيَةَ، وفي هَذا تَهْدِيدٌ بِأنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ يُصِيبُهم بِذُنُوبِهِمْ في المُسْتَقْبَلِ، إذْ لا يَصُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ غالِبٌ، والمَعْنى: أغَرَّهم تَأخُّرُ العَذابِ مَعَ تَكْذِيبِهِمْ فَحَسِبُوا أنْفُسَهم في مَنَعَةٍ مِنهُ، ولَمْ يَهْتَدُوا إلى أنَّ انْتِفاءَ نُزُولِهِ بِهِمْ مُعَلَّقٌ عَلى انْتِفاءِ مَشِيئَتِنا وُقُوعَهَ لِحِكْمَةٍ، فِما بَيْنَهم وبَيْنَ العَذابِ إلّا أنْ نَشاءَ أخْذَهم"(١).

في قوله: ﴿أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾، هل يعني ذلك أن الله ﷻ لم يشأ؟ فلماذا لم يشأ الله ﷻ حدوث ذلك؟

الجواب: نعم،

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٨).

بصيرة: أمور الكون تُدَبَّر بالمشيئة الإلهية، والله لم يشأ أن يصيبهم ببعض ذنوبهم؛ ليبين حلمه وعفوه وإمهاله لهؤلاء الذين ضلوا سواء السبيل عساهم يرجعون، وليقضوا الأجل المضروب لهم في كتاب القدر.

هذه السُّنَّة صيغت على هيئة سؤال.. إنه السؤال الرابع، وهو سؤال يجيب عن سؤالٍ نشأ من السابق:

فإن كان بأس الله ﷻ سيأتي، فلمَ لَمْ يأت لكثير من الحضارات الجديدة التي ورثت حضارات قديمة؟ لِمَ لَمْ يأت لأممٍ تتابعت في الذنوب والبغي والظلم؟

يخبرنا الله ﷻ بالجواب عن ذلك على هيئة سؤال موقظ للعقول الغافلة المستكبرة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ﴾ أي: أولم يستبن لهؤلاء الغافلين المستكبرين، أولم يظهر لهم، أولم يتضح لهم الجواب عن سبب تأخير العذاب؟ هم ورثوا الأرض بعد من سبقهم ممن كانوا مسيطرين عليها، ولو نشاء أن نصيبهم بذنوبهم كما أصبنا من كان قبلهم لفعلنا.

وهذا المعنى يذكره الله ﷻ بأساليب متعددة لأهميته في فَهْمِ الحياة كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍۚ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]، وَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤-٤٥]، ومن أبرز الآيات التي توجه نظرنا إلى مصير الأمم قبلنا قوله تعالى عن دولة عاد: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم

مِّن شَىۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف: ٢٥-٢٧] .

انظر للطف الإلهي العظيم، والبيان القرآني المدهش: ضَمَّن التهديد البَيِّنة على حياته وقيُّوميته وتدبيره للكون، فهدَّد الموجودين بمصير الهالكين، ثم قال: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، ما التهديد الجديد في ختام هذه الآية؟ وكيف كشفت لنا الواو في قوله تعالى: ﴿وَنَطۡبَعُ﴾ أوضاعًا متعددة لهذه الأمم التي خَلَفَت الأمم الهالكة، وأحوالًا متعددة للملوك والأقوياء الذين خَلَفوا من قبلهم، فأظهرت هذه الواو أحوالهم و أفكارهم و أفعالهم؟

الجواب: كشفت هذه الواو صورًا متعددة منها:

الصورة الأولى: أن تجعل هذه الواو عاطفة لما بعدها على كلامٍ محذوفٍ مفهومٍ من سياق ما قبلها، ويكون التقدير: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾، وعندها يفكرون في العاقبة التي حلت بمن قبلهم، لكنهم أبوا أن يفكروا، وأصروا على عنادهم، ونحن عاقبناهم على هذا العناد، وطبعنا على قلوبهم فهم لا يسمعون أيَّ تذكيرٍ يأتيهم، فلم يكن مطبوعًا على قلوبهم من قبل، بل إن تماديهم في الكفر، وإصرارَهم على الفسق أدى بهم إلى أن يعاقبهم الله ﷻ بأن طبع على قلوبهم فهم لا يسمعون.

الصورة الثانية: هذه الواو للتنويع، وعلى هذا المعنى فالله ﷻ يهدد الأمم الغافلة المستكبرة بأمرين:

أحدهما: الإصابة ببعض ذنوبهم، **والآخر:** الطبع على قلوبهم.

والآخر (الطبع) أشد من الأول (العقوبة المباشرة)، وهو نوع من الإصابة بالذنوب أو العقوبة عليها، ولكنه أنكى أنواع العذاب وأبلغ صنوف العقاب،

> **بصيرة: كثيرًا ما يعاقب الله ﷻ على الذنب بالإيقاع في ذنبٍ أكبر منه، وعلى الكفر بزيادة التصميم عليه والغلو فيه، كما قال تعالى عن آيات القرآن: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾، كما زادت المؤمنين إيمانًا إلى إيمانهم، وهذا النوع من الثواب والعقاب مناسبٌ لما كان سببًا فيه وجزاءً عليه، فثواب الايمان إيمان، وثواب الكفر كفر.**

ويكون المعنى: إنْ لَمْ نُهْلِكْهم بِالعِقابِ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أيْ: لا يَقْبَلُونَ، ولا يَتَّعِظُونَ، ولا يَنْزَجِرُونَ، إننا نغطِّي أفْهامَهم بِحَيْثُ يَصِيرُونَ كالبَهائِمِ لا يَسْمَعُونَ إلّا دُعاءً ونداءً، فَسَماعُهم حَيْثُ لا فَهْمَ كأنه ليس بسماع، وهم عندما لم يسمعوا جَعَلُوا ذَلِكَ سَبَبًا لاطمئنانهم؛ فأنْكَرَ الله ﷻ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ [الأعراف: ٩٧] إلى آخِرِه(١).

"وإنَّما قُلْنا: إنَّ المُرادَ إمَّا الإهْلاكُ وإمّا الطَّبْعُ عَلى القَلْبِ؛ لِأنَّ الإهْلاكَ لا يَجْتَمِعُ مَعَ الطَّبْعِ عَلى القَلْبِ، فَإنَّهُ إذا أهْلَكَهُ يَسْتَحِيلُ أنْ يَطْبَعَ عَلى قَلْبِهِ"(٢).

وكون (الواو) في قوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ للتنويع فمثلها مثل الواو في قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ [النساء: ٣].

ولم يرتضِ ابن عاشور ﷺ هذا المعنى، فقال: "وجُمْلَةُ ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ لَيْسَتْ مَعْطُوفَةً عَلى جُمْلَةِ ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ حَتَّى تَكُونَ في حُكْمِ جَوابِ ﴿لَوْ﴾؛ لِأنَّ هَذا يُفْسِدُ المَعْنى، فَإنَّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ ورِثُوا الأرْضَ مِن بَعْدِ أهْلِها قَدْ طُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ، فَلِذَلِكَ لَمْ تُجْدِ فِيهِمْ دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُنْذُ بُعِثَ إلى زَمَنِ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَلَوْ كانَ جَوابًا لِـ﴿لَوْ﴾ لَصارَ الطَّبْعُ عَلى قُلُوبِهِمْ مُمْتَنِعًا وهَذا فاسِدٌ"(٣).

وقد سبق لنا تحليل دقيق حول كلمة (لو)(٤).

الصورة الثالثة: ارتضاها ابن عاشور ﷺ: "أنْ تَكُونَ جُمْلَةُ ﴿وَنَطْبَعُ﴾ مَعْطُوفَةً عَلى جُمْلَةِ السؤال بِرُمَّتِها، فَلَها حُكْمُها مِنَ العَطْفِ عَلى أخْبارِ الأُمَمِ الماضِيَةِ والحاضِرَةِ، والتَّقْدِيرُ: وطَبَعْنا عَلى قُلُوبِهِمْ"(٥).

---

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٤/ ٣٢٣)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ١٤).

(٢) تفسير الرازي (١٤/ ٣٢٣).

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٢٨- ٢٩).

(٤) انظر ذلك عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

(٥) التحرير والتنوير (٩/ ٢٩).

وهنا نتدبر شيئًا عظيمًا، وهو مجيء كلمة ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ على هيئة الفعل الماضي، وكلمة ﴿وَنَطْبَعُ﴾ على هيئة الفعل المضارع، فما السبب؟

الجواب: "إشارَةً إلى سُرْعَةِ الإهْلاكِ مَعَ كَوْنِهِ شَيْئًا واحِدًا غَيْرَ مُتَجَزِّئٍ، وعَنِ الطَّبْعِ بِالمُضارِعِ إيماءً إلى التَّجَدُّدِ، بِحَيْثُ لا يَمُرُّ زَمَنٌ إلّا كانُوا فِيهِ في طَبْعٍ جَدِيدٍ"(١)، "فَصِيغَ بِصِيغَةِ المُضارِعِ لِلدَّلالَةِ عَلى اسْتِمْرارِ هَذا الطَّبْعِ وازْدِيادِهِ آنًا فَآنًا"(٢).

والذي يظهر لي أن كلمة (أصبنا) تبصّرنا بأن العقوبة مقررة جاهزة لو أراد الله إنزالها عليهم، بينما كلمة (نطبع) تبصرنا أن الله لا يعاقبهم بالطبع الكامل مرة واحدة أو في وقت واحد، بل يمر ذلك بمراحل حسب ذنوبهم، كما حدثنا رسول الله ﷺ عن النكتة السوداء(٣) التي توضع في القلب إن عصى الله، فالنكتة السوداء بداية الطبع، ثم تتكاثر إن أكثر صاحبها من الذنوب، حتى يطبع على القلب كاملًا نسأل الله العافية.

ولكن ما معنى ﴿وَنَطْبَعُ﴾؟ وكيف يحدث؟ وما وجه قوة هذه الكلمة في هذا الموضع؟

هذه الكلمة المثيرة ﴿نَطْبَعُ﴾ تقودنا إلى محاولة معرفة مراحل مسخ القلوب في التربية القرآنية العظيمة، فهلم ننظر فيها:

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ١٥).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢٩).

(٣) يريد بذلك حديث أبي هُريرةَ ﵁، عن رسولِ اللهِ ﷺ قال: "إنَّ العَبدَ إذا أخطأ خَطِيئةً نُكِتت في قَلبهِ نُكتةٌ سَوداءُ، فإذا هو نَزَعَ واستَغفرَ وتابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وإنْ عادَ زِيدَ فِيها حتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ، وهو الرَّانُ الّذِي ذَكرَ اللهُ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. أحمد (٧٩٥٢)، والترمذي (٣٦٢٤) واللفظ له، وقال حديث حسن صحيح.

مراحل مسخ القلوب:

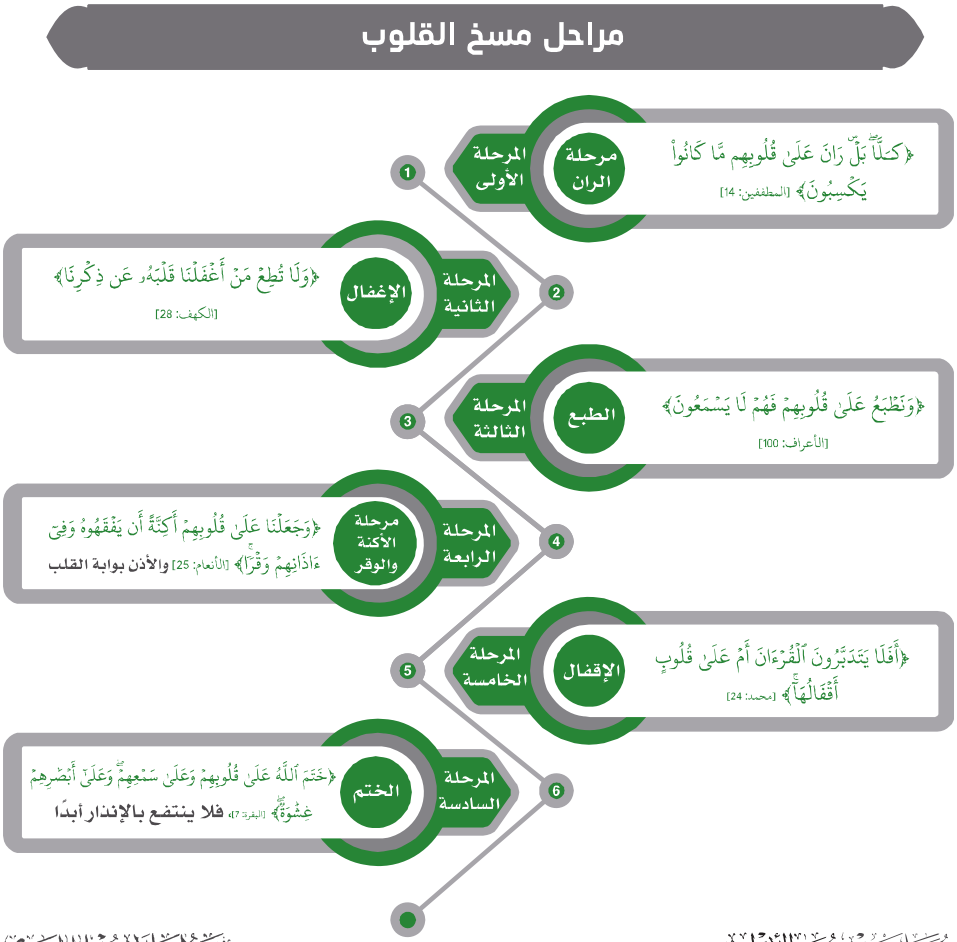

إذن فهناك مراحل لمسخ القلوب، ومرحلة الطبع أحد هذه المراحل، فينبغي أن نتحدث عنها لنتمكن من اتقائها، فما مجموع هذه المراحل؟

الجواب: يمكن تلخيص هذه المراحل في الآتي:

الأولى: الرين أو الران.

الثانية: الإغفال .

الثالثة: موازية للمرحلتين السابقتين ولما بعدها: الطبع.

الرابعة: مرحلة الأكنة والوَقر .

ثم تأتي المرحلة الخامسة: الإقفال .

ثم تأتي المرحلة السادسة: الختم.

وقد سبق تفصيلها باستفاضة في مقدمة مفصل سورة البقرة[(١)]، ونشير إليها باختصار مع بسط القول في التحليل اللغوي لمرحلة الطبع؛ لأنها مذكورة هنا.

لو أردنا معرفة هذه المراحل الخطيرة المدمرة للقلوب، فلنبدأ بالمرحلة الأولى: الرين أو الران، فماذا تعني؟

الأولى: الرين أو الران، وهي التي قال الله ﷻ عنها: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، **لاحظ أن الران يحدث بسبب فعل الإنسان، إذ قال الله ﷻ هنا:** ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] والران كلمة تدُلُّ عَلَى غِطَاءٍ وَسَتْرٍ بأمرٍ معتادٍ مفسدٍ للواقع، فَالرَّيْنُ: الْغِطَاءُ عَلَى الشَّيْءِ، وَرَانَ النُّعَاسُ يَرِينُ، أي غطى على عقل الإنسان، وَرَانَتِ الْخَمْرُ عَلَى قَلْبِهِ: غَلَبَتْ، فإذا وقع الغطاء والستر والصدأ على النفس غَيَّرَها، وبدأت بإفساد رؤيتها، فيقال: رَانَتْ نَفْسِي تَرِينُ، أَيْ غَثَتْ فتغير مزاجها، وخرجت عن طبيعتها، وسيطرت عليها طبيعة جديدة[(٢)].

فقول الله ﷻ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ﴾ أي: صار ذلك كصدأٍ على صفاء قلوبهم، فلم يعودوا يعرفون الخير من الشرّ، وربما بدأوا باتباع طريقة جديدة في الحياة فجعلوا الشر مكان الخير، والمعصية مكان الطاعة.

فبدايته: نكتة سوداء في القلب الداخلي تقابل الذنب الخارجي، ويبين النبي ﷺ ذلك، فيقول: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ-أي مُسحت النكتة السوداء وعاد إلى صفائه- فَإِنْ زَادَ، زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»[(٣)].

---

(١) ينظر: مفصل سورة البقرة وبصائرها (١/٤٣٦).

(٢) ينظر. مقاييس اللغة (٢/ ٤٧٠)، شرح مشكل الآثار (١١/ ٧٣).

(٣) أحمد (٧٩٥٢) واللفظ له، والترمذي (٣٦٢٤)، وقال: "حديث حسن صحيح"، وحسَّنه الوادعي في الصحيح المسند (١٣٤١).

وعَنْ مُجَاهِدٍ ﵀: قَالَ: "نبتت الْخَطَايَا عَلَى الْقَلْبِ حَتَّى غَمَرَتْهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ الله ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]"(١).

ماذا يحدث بعد مرحلة الرين أو الران الذي يعتري القلوب؟

الجواب:

المرحلة الثانية: الإغفال، وهي التي قال الله ﷻ عنها: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨] أيْ: لا تطع من جَعَلْنا قَلْبَهُ غافِلًا ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ والمصيبة الكبيرة في الإغفال أن الله ﷻ أسند إحداثه إلى نفسه جل وعز، فقال: ﴿أَغْفَلْنَا﴾، وهذا يعني أن هذه المرحلة عقوبة على شيء، فلا بد أن نبحث في هذا الشيء.

والآية تكشف ذلك، فسبب الإغفال أنه اتبع هواه، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي: مسرفًا في المعاصي؛ لأنه لا يجاهد نفسه المجاهدةَ الحقة ليرتقي بها، فأهمل نفسه عن تدريبها على معالي الأمور حتى صارت خاملة ذات قلب غافل، فبطل اسْتِعْداد نفسه لِلذِّكْرِ بِالمَرَّةِ؛ قال الآلوسي ﵀: "كَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ إلى طَرْدِ الفُقَراءِ، فَإنَّهم غافِلُونَ عَنْ ذِكْرِنا عَلى خِلافِ ما عَلَيْهِ أُولَئِكَ الفُقَراءُ مِنَ الدُّعاءِ في الغَداةِ والعَشِيّ"(٢).

والآية واضحة المعنى: فالله ﷻ لم يؤيد قلب هذا الغافل بعونه وتسديده؛ لأنه لم يذكر ربه ﷻ بل اتبع هواه وكان أمره فرطًا.

فالمرحلة الأولى التي تصيب القلوب المذنبة: الرين، والثانية: الإغفال، فأين تقع مرحلة الطبع التي ذكرها الله ﷻ هنا ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؟

الثالثة: موازية للمرحلتين السابقتين ولما بعدها: الطبع: فتكرر ذكرها في القرآن المجيد، وقال الله ﷻ عنها هنا: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠﴾ [الأعراف: ١٠٠]، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٠١﴾ [الأعراف: ١٠١].

لماذا نقول: هي مرحلة موازية لبقية المراحل؟

---

(١) تفسير مجاهد (ص: ٧١١)، شعب الإيمان (٦٨١٣)، وقال المحقق (د. عبد العلي حامد): "إسناده حسن".

(٢) تفسير الألوسي = روح المعاني (٨/ ٢٥٢).

الجواب:

هذه الكلمة القوية في موضعها مشتقة من "طبع"[(١)]:

وأصل الطَّبْعِ: الوسَخُ الشَّديد الذي يتشكل على السيف، فيكون منطبعًا عليه، فيقال: طَبِعَ السَّيْف وَغَيره طَبَعًا، فَهُوَ طَبِع أي صدئ. قَالَ جرير:

وإذا هُـزِزْتَ قَـطَـعْـتَ كُـلَّ ضَــريـبـةٍ ... فـخـرجـتُ لا طَـبِـعًـا ولا مَـبْـهـورا[(٢)]

وطَبِعَ الثَّوْب طَبَعًا: اتسخ، ويظهر أنه اتسخ بصورة متشكلة على هيئة ما، ويصعب معالجته بعدها، وليس مجرد اتساخ.

ويرى ابن منظور رحمه الله أن الطبع "اسْتُعِيرَ فِيمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ مِنَ الأَوْزار والآثامِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ المَقابِحِ"[(٣)].

وقال الراغب رحمه الله في تعريف الطَّبْع: "أن تُصَوِّرَ الشيء بصورة ما، كَطَبْعِ السِّكَّةِ، وطَبْعِ الدَّراهِمِ، وهو أعمُّ من الختم وأخصُّ من النَّقش"[(٤)]، فيقال: طبَعَ الرجلُ اللَّبِنَ (الطُّوب) والدرهمَ والسيفَ: صاغه، وطَبَعْتُ من الطين جَرَّة: إذا عملها وشكلها من الطين، والطَّبَّاع: الذي يعمل هذا العمل، ويصنع هذه الصناعة بأن يقرضها أو يسوِّيها، فيطبع منها سيفًا أو سكينًا أو جرَّة.

فالطبع أن تأتي إلى مادةٍ قابلة للتشكُّل، فتسويها على هيئة محددة، ثم تدوم هذه الهيئة، ومن هنا جاء معنى الطَّبْعُ الإنساني أي السَّجيَّة والخليقة والصفة التي جُبِلَ عليها الإنسان، أو السَّجيَّة التي يتحول إليها، ويصنعها في نفسه أو تُصنَع له بأن يتطبَّع عليها حتى تصبح طابَعًا له، فيقال في الأمرين: الجِبِلِّي والذي تعوَّد عليه: طبيعة، فيكون للإنسان طِباعٌ في المأكل والمشرب وغيره من الأَطْبِعَة التي طُبِعَ عليها، فيقال: فلانٌ مطبوع على خُلُق سيِّء، وعلى خُلُق كريم.

هكذا اتضحت لنا قوة هذه الكلمة القرآنية، فيبدأ الإنسان بتشكيل طباع نفسه شيئًا فشيئًا في الكرم أو البخل، في الشجاعة أو الجبن، في محبة الطاعة أو حب العصيان، في الحِلم أو الغضب،

---

(١) العين (٢/٢٢-٢٤)، تهذيب اللغة (٢/١١٠-١١١)، الصحاح تاج اللغة (٣/١٢٥٢-)، مقاييس اللغة (٣/ ٤٣٩)، «المحكم والمحيط الأعظم» (١/٥٥٦-٥٥٧)، المفردات في غريب القرآن (ص٥١٥)، المعجم الاشتقاقي (٣/ ١٣١٠).

(٢) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب (١/ ٢٢٩)، (الضريبة): كلُّ شَيْء ضَربته بسَيْفك. و(الطَّبِع): طَمِع متدنس. (المبهور): المغلوب.

(٣) لسان العرب (٨/ ٢٣٣).

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص ٥١٥).

وشيئًا فشيئًا تتشكل هذه الأخلاق كما يطبع الطَّبَّاع الطين لَبِنًا، أو الحديد سيفًا أو درعًا، حتى يثبت الشكل النهائي إما في الخير أو الشر.

ولذا عَرَّف ابن فارس ﷺ الطبع، فقال: "هُوَ مَثَلٌ عَلَى نِهَايَةٍ يَنْتَهِي إِلَيْهَا الشَّيْءُ حَتَّى يُخْتَمَ عِنْدَهَا، يُقَالُ: طَبَعْتُ عَلَى الشَّيْءِ طَابَعًا. ثُمَّ يُقَالُ عَلَى هَذَا: طَبْعُ الْإِنْسَانِ وَسَجِيَّتُهُ"[١].

بصيرة: الطبع نقشُ المرءِ صورتَه وطبيعتَه وَفْقَ الاختيار الذي يختاره رويدًا رويدًا، وشيئًا فشيئًا، حتى تصبح اختياراتُه عاداتٍ له تنطبع حياته عليها، وحينها تصبح سجايا تمامًا كما لو نقش في جسده نقوشًا ثابتة لا تتغير يوشك ألا يستطيع إزالتها.

كما قال المتنبي:

يُراد مِنَ القَلبِ نِسيانُكُم　　　وتَأبَى الطِّباعُ على النَّاقِلِ[٢]

ويقال: لَهُ طابِعٌ أو طبع حَسَنٌ، أَي طَبِيعةٌ؛ وأَنشد:

لَهُ طابِعٌ يَجْرِي عَلَيْهِ، وإِنَّما　　　تُفاضِلُ مَا بَيْنَ الرِّجالِ الطَّبائِعُ[٣]

هل نفهم من ذلك أن عندنا طبيعتين أو طبعين للإنسان؟

الجواب: نعم، الطبيعة التي طبع الله ﷻ الخلق عليها، وهي الفطرة التي فطر الله ﷻ الناس عليها، ولكنه جعل ضمنها حرية الإرادة في اختيار الخير والشر، وهنا يأتي من يوثق هذه الطبيعة بأن يزيد الخير، ويقلل الشر، ويأتي من يختار العكس، وتكون نتيجة اختيار العكس أن يطبع الله ﷻ على القلوب.

وحين يعوِّد الإنسانُ نفسَه على الخير يتطبَّع عليه حتى يصبح طبيعتَه، فإن حاول أن يغيره لم يستطع، أو استطاع لكن بمشقة كبيرة.

---

(١) مقاييس اللغة: (٣/٤٣٨).

(٢) ديوان المتنبي (ص: ٢٦٩).

(٣) البيت للرؤاسي، كما في تهذيب اللغة (٢/ ١١١).

وفي المقابل أول مرة يصيب العبدُ الذنبَ ربما بكي وتألم وشعر بالحياء من ربه ﷻ، ثم يعتاد الذنب حتى يصبح الفسق مألوفًا له، فاجتمعت النقاط السوداء على قلبه ونفسيته **وغطى الران قلبَه**، ثم تزداد محبته للذنوب فينتقل إلى **مرحلة الإغفال**، ثم تصرُّ هذه الأبدان على عادات السوء، فتصبح لها طبيعة، وهنا تصبح النُّكَت السوداء في القلب كثيرة حتى تشكِّل نسيجًا يغشي القلب فيطبعه بطابعه، فيغشيه ويمنعه من أن تصل ألطاف الله ﷻ إليه، ثم يتطبَّع على المعاصي، فقد طبع نفسه على السوء أو على الكذب أو على الإجرام، فأصبحت طبيعة له كطَبِيعَة النارِ، فيقال: تطبع فلان على شيء، حتى صار طَبْعًا وسجية له، وكأن الطبع تحويل الحالة إلى طبيعة معتادة لا تتغير، فإذا تطبع بالفسق، وصار الفسق له طبيعة، وضع الله ﷻ الطابع على قلبه، ثم يزداد ولا يبحث عن علاج حينها يجيء الختم على ذلك الطابَع، فلا يستطيع العيش دون الإجرام والفسق؛ لأنه أبى أن يترك منفذًا للخير ليدخله، وأبى أن يترك منفذًا للشر ليخرج منه.

وهذه الآية توضح لك ذلك بيسر؛ إذ يقول الله جل ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [غافر: ٣٥]. وبذلك فإن طبع الله ﷻ على قلب المتكبر جاء بسبب تكبره وتكرار هذا التكبر، والإصرار على ذلك التكبر، وطبع على قلب الكافر لكفره، وتكرار هذا الكفر، والإصرار على ذلك الكفر، فيصير مطبوعًا على ذلك.

والآن ما معنى الطابَع؟

الجواب: الطابَعُ بالفتح: الخاتَمُ الذي يختم به على شيء حتى يظهر أثر مميز عليه لا يتغير، والطابع بالكسر: لغة فيه.

ويظهر لي أن الطبع: تطبع الإنسان على خُلُقٍ حسن أو سيء حتى يصير طبيعة فيه، ويصبح هذا طابَعه، فكأنه يوضع الطابَع عليه بذلك، والختم يكون فوق الطابع، فعملية الطبع والختم يقربها إلينا ما نراه عند البشر، فالطَّابَعُ بِالْفَتْحِ: الشكل الخاص الذي تلصقه على الظرف أو الورقة، وَالطَّابِعُ: الإنسان الَّذِي يَخْتِمُ، والختم فوق ذلك، عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ اللهِ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْنُهُ لَوْنُ الزَّعْفَرَانِ، وَرِيحُهُ رِيحُ الْمِسْكِ، عَلَيْهِ طَابَعُ الشُّهَدَاءِ»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كَانَ إِذَا جَلَسَ مَجْلِسًا أَوْ صَلَّى تَكَلَّمَ بِكَلِمَاتٍ، فَسَأَلَتْهُ عَائِشَةُ عَنِ الْكَلِمَات، فَقَالَ: «إِنْ تَكَلَّمَ بِخَيْرٍ كَانَ طَابِعًا عَلَيْهِنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ تَكَلَّمَ بِغَيْرِ ذَلِكَ كَانَ كَفَّارَةً: سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»(٢).

وكأن الطابَع مثل النقش الذي وضعه الله عز وجل عليه ليدل أنه سيلزم هذه الطبيعة دون تغيير، وأما الختم فهو المرحلة الرسمية لتكامل تلك الطبيعة، فيؤتى بالخاتَم، ليكون فوق الطابع.

فالطبع يدل على التمادي في الكفر والإصرار والغلو في التصميم، حتى يكون الموصوف به ميؤوسًا من قبوله للحق، فمعنى قوله: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾ [الأعراف:١٠٠]، ونضع عليها طابَعًا يثبت بقاء طبيعتها على ما مرن عليه أصحابها قلوبهم، وعند ذلك لا يسمعون أي خيرٍ يصلهم من الآخرين.

هل يوجد بعد مرحلة الطبع مرحلة أخرى تنتقل لها القلوب المذنبة؟

الجواب: نعم، ونعوذ بالله من ذلك:

المرحلة الرابعة: مرحلة الأكنة والوقر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ﴾ [الأنعام: ٢٥].

و الأكنة جمع (كِنّ)(٣)، وهي كلمة تدُلُّ عَلَى سَتْرٍ أَوْ صَوْنٍ فالكِنُّ ما يحفظ فيه الشيء، فهو المكان أو الأداة المحددة المحيطة على هيئة محكمة تستُر أو تَحْمي ما فيها كالكِنانة التي توضع فيها السهام، يُقَالُ منها: كَنَنْتُ الشيء كَنًّا: جعلته في كِنٍّ، إِذَا جَعَلْتَهُ فِيهِ وَصُنْتَهُ، وَأَكْنَنْتُ الشَّيْءَ: أَخْفَيْتُهُ، وَالْكِنَانَةُ: جَعْبَةٌ غير مشقوقة من أَدَمٍ توضع فيها السِهام.

---

(١) أحمد (٢٢١١٠)، وحسَّن محققو المسند إسناده، وصححه ابن حبان (٣١٩١)

(٢) أحمد (٢٤٤٨٦)، والنسائي (١٣٤٤)، وقال محققو المسند: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح غير خلاد بن سليمان الحضرمي، فمن رجال النسائي".

(٣) العين (٥/ ٢٨١)، مقاييس اللغة (٥/ ١٢٣)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ١٩٢٧-١٩٢٨).

وخُصَّ كَنَنْتُ بما يُستر ببيتٍ أو ثوب، وغير ذلك من الأجسام، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ۝٤٩﴾ [الصافات: ٤٩]، أي مصون محفوظ شُبِّهْنَ ببيض النعام، تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار، فلونها أبيض في صفرة، وهو أحسن ألوان النساء.

والكِنُّ -بالكسر-: البيتُ، وما يَرُدُّ الحرَّ والبردَ من الأبنية والمساكن وجمع الكِنّ أكنة وأَكْنَانٌ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ [النحل: ٨١]، والكِنُّ في الجبل هو: الغار، والأكنان: الغِيرانُ (جَمْع غار) ونحوُها يُستَكَنُّ فيها.

والكِنَانُ: الغطاء الذي يكنُّ فيه الشيء، والجمع أَكِنَّةٌ نحو: غطاء وأغطية، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ [فصلت: ٥] قيل: معناه في غطاء عن تفهُّم ما توره علينا، كما قالوا: ﴿يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ﴾ [هود: ٩١].

بصيرة: الأكنة: هي الأجسام المحيطة بالقلوب قد أحاطت بها كما أحاطت البيوت بمن فيها، فسترت هذه القلوب على هيئة محكمة، تحميها وتمنعها من أن تصل إليها أنوار الهدى.

فتَصَوَّر الأمر: قلبٌ مطبوع على القبائح، وفوق ذلك وجد كِنٌّ يحيط به، ووجدنا الآية تحدثنا عن الوَقر، فما الوقر؟ وما علاقته بقوله: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝١٠٠﴾ [الأعراف: ١٠٠]؟

الجواب: أما (الوقر)[1]: فهي كلمة تدل عَلَى ثِقَلٍ فِي الشَّيْءِ، ومِنْهُ الْوَقْرُ: الثِّقَلُ فِي الْأُذُنِ، **والوَقْرُ: الحِمْل للحمار وللبغل كالوسق للبعير، والوِقْر (بالكسر): الحِمْل الثقيل، ومنه قوله:** ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ [الذاريات: ٢]: **السحاب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوِقْر.**

فقوله: ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٤٤] أرادوا أن هناك ركامًا على آذانهم، وطبقة تعلوها فتمنعها من السماع الجيد، فهم يتهربون من سماع الحق، فيقولون: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ

(١) ينظر. مقاييس اللغة (٦/ ١٣٢-١٣٣)، لسان العرب (٥/ ٢٩٠-٢٩٣).

وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت: ٥] **أي: في آذانهم ثِقَلٌ، فيستمعون كلَّ شيء إلا الحقَّ، فهو ثقيل على نفوسهم الجاهلة المتكبرة.**

هذا في سورة فصلت، فجاءت آية سورة الأنعام ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ﴾ [الأنعام: ٢٥] **لتصوِّرلنا أن الله ﷻ عاقبهم بأن حقَّق لهم ما أصروا على بنائه لأنفسهم.**

وقد يتساءل الإنسان: ألم يكن ينبغي أن نقدم مرحلة الوَقر، وذلك لأنه (ثقل السمع) أو عدم الاستماع الصحيح، فيكون محله مع الرين؟

الجواب: بل هو مرحلة متأخرة، وذلك لأنك تتصور هذا القلب، وقد بدأت النُكَت السوداء التي تمثل مرحلة الران تزداد فيه، ثم جاءت مرحلة الإغفال حيث عاقب الله ﷻ صاحب هذا القلب بأن أغفل قلبه عن ذكره، ثم مع ازدياده من الإعراض عن الله ﷻ، وإكثاره من المعاصي تحول إلى مرحلة الطبع، فصارت المعاصي منطبعة في قلبه كأنها جزء منه، ثم جاءت مرحلة الأكنة، حيث صار القلب في كِنٍّ يمنع من دخول أنوار النصح إليه، وهنا تأتي مرحلة الوقر، وهو الذي تَحُول الجدران بينك وبينه، تناديه لكنه لا يسمع.

إذن: فمرحلة الران أدت إلى مرحلة الإغفال، ومرحلة الإغفال أدت إلى مرحلة الطبع، وصاحب ذلك أن تكون قلوبهم في أكنة، وفي آذانهم وقر، وحينها لا تسمع ما يقال لها من خير، فهل تنتقل القلوب المذنبة إلى مرحلة أشد؟

الجواب: نعم فتأتي:

المرحلة الخامسة: الإقفال، وهي التي قال الله ﷻ عنها: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. فتغلق المنافذ على تلك القلوب، وفي هذه المرحلة يصبح الشرُّ لها أحبَّ من كل شيء؛ إذ لا منفذ للخير يصل إليه ليراه، بل تصبح الأعمال الشريرة متعة لصاحب هذا القلب، وتتصور الإقفال بوجود الأقفال على الأكنة التي تحيط بالقلوب، فإذا أردت أن تفتح هذه القلوب لم تجد مجالًا لذلك؛ لأن هذه الأقفال لا مفاتيح لها.

تصور خطر هذه المرحلة، وهنا تأتي:

المرحلة السادسة: الختم، وهي التي ذكرها الله ﷻ في أول سورة البقرة لبيان أن صاحبها لا يؤمن أبدًا مهما نصحته وأنذرته وحذرته ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ [البقرة: ٦-٧].

وذكر مجاهد بن جبرٍ ﷺ ثلاثًا من هذه المراحل، فقَالَ: "الرَّيْنُ أيسر مِنَ الطَّبْعِ، وَالطَّبْعُ أيسر مِنَ الإِقْفالِ، والإِقْفالُ أَشدُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ"(١).

ويظهر لي أن المرحلة الأخيرة هي (الختم)، وإن كنت مترددًا أيهم أسبق: الإقفال أم الختم، ولتصور ذلك نقرب المسألة: كأنك أقفلت الظرف ثم وضعت عليه الطابَع ثم ختمت عليه، فالطابع حكم بعدم تغيير الطبيعة، ثم يأتي الختم لتأكيد ذلك كله.

وبذا رأينا أن الطبع مرحلة سابقة لاحقة، فنجدها سابقة للختم، ونجدها بعد الران والإغفال، وفي مرحلة الختم لَا يَعِي المختوم عليه شيئًا، وَلَا يُوَفَّقُ لِخَيْرٍ، يقتل الأطفال فيضحك كأنه يتمتع، وتنتهك حرمات الله ﷻ، فيستمتع عندما يرى كثرة الزنى، وتحكُّم الربا، فإذا ذكر الله ﷻ وحده اشمأز من ذلك كما قال: ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ۝٥١﴾ [المدثر: ٥٠-٥١]، ومن هنا أتت صورة طَبَعِ الْقَلْبِ، بِتَحْرِيكِ الْبَاءِ، وهُوَ تَلْطِيخُهُ بالأَدْناس، حتى يصبح طبيعة.

ومن أمثلة هذه المعاصي الضخمة ما جاء عن أبي الجَعْد الضَّمْرِيِّ ﷺ، وكانت له صحبةٌ، أن رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ تركَ ثلاث جُمَعٍ تهاونًا بها، طَبَعَ الله على قَلْبِهِ»(٢).

وقد تسأل: ما الفرق بين الطبع والختم؟

الجواب:

الختم مصدر خَتَمَه(٣) يَخْتِمُه خَتْمًا وخِتامًا فهو مَختوم ومُخَتَّمٌ، شُدِّد لِلْمُبَالَغَةِ، والخاتِمُ الفاعِلُ، والختم أمران:

---

(١) شعب الإيمان (٦٨١٥)، وحسَّن محقق الكتاب (د. عبد العلي حامد) إسنادَه.

(٢) أحمد (١٥٤٩٨)، الترمذي (٥٠٦) وقال: حديث أبي الجعد حديث حسن، وحسنه الذهبي. ينظر: مختصرُ استدرَاك الحافِظ الذّهبي (٢٣٥٨/٥).

(٣) لسان العرب (١٦٣/١٢)، ينظر. مقاييس اللغة (٢٤٥/٢).

الأول: بُلُوغُ آخِرِ الشَّيْءِ، فيُقَالُ: خَتَمْتُ الْعَمَلَ، وَخَتْمَ الْقَارِئُ السُّورَةَ، ومنه قيل: ختمت القرآن، أي: انتهيت إلى آخره.

وهو هنا لا يرادف (الطبع)، بل الطبع مرحلة عامة بدأت قبل الختم.

الثاني: قد يؤتى بعد ذلك بالْخَتْم، أي بأمر يختم على كل ما سبق صوغه أو جمعه، وهو ما يختم به على الجِرَار لمنع شيء من الخروج منها، ومن ذلك أن تجمعَ النَحْلُ من الشَمَع شيئًا رقيقًا أرق من شَمع القُرص فتطليه به ليكون الغطاء الأخير.

ومما ورد من الختم بمعنى الاستيثاق والمنع للزيادة قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥]، أي: نمنعهم من الكلام.

والختم بهذا المعنى الثاني يرادف الطَّبْع في جزئية أنه آخر ما يتم عمله لإحكام الشَّيْءِ، وتوثيقه، وجزء منها قبل الختم.

فإن قلت: فما علاقة قسوة القلب بكل تلك المراحل التي تصيب القلوب المذنبة؟

الجواب: يصاحب تلك المراحل وينتهي إليها مرحلة خطيرة جدًا هي:

> **بصيرة: مرحلة قسوة القلب، تبدأ مع الران، ثم تكبر مع الإغفال، ثم تزداد القساوة مع الطبع، ثم تزداد مع مرحلة (الكنّ)، ثم تزداد ضراوة مع الإقفال، ثم تصبح هي المسيطرة مع الختم.**

ويبصرنا الله ﷻ بأوائلها في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

ويبصرنا الله ﷻ بأواخرها في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

ولذا إن شعر الإنسان بها فيجب أن يبادر إلى علاجها قبل أن تزداد وتستفحل وتسيطر، كما يبادر بعلاج السرطان في أول ظهوره قبل أن يسيطر، ومن أعظم وسائل العلاج: القيام على الضعفاء،

وقيام الليل، وصيام النهار، وكثرة الصلاة، وكثرة الدعاء، ولزوم الصالحين، فقد قال النبي ﷺ مثلًا: «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ، فَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ، وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ»(١).

وهنا سؤال مهمٌّ يترتب على تدبرنا لها.. يقول الله ﷻ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ [الأعراف:٩٧-١٠٠].

فالله ﷻ يخوفنا من بأسه ومكره، ويحذرنا من أن نُصَاب بذنوبنا، ومن أن يُطْبع على قلوبنا فهل هذا التحذير في القرآن يعني أن نعيش خائفين مفزعين قلقين نرتجف من أن يصيبنا الهلاك والدمار ليل نهار، أو أن نُبَاغت بالعذاب، فنعيش هكذا دون اطمئنان أو استقرار؟

الجواب: لا! ليس هذا المقصود، بل القرآن يذكر أن من أعظم نعم الله ﷻ على العبد أن يحيا حياة طيبة مطمئنة، فيقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾ [قريش: ٤]، وعدم الاطمئنان في الحياة يسبب الشقاء، كما أن الفزع الدائم من المجهول، والقلق المستمر من المستقبل الخفي، والرعب المتكرر من مصيبة تقع أو كارثة تحدث، كل ذلك يؤدي إلى تعطل الحياة، والعيش في مرحلة الطوارئ، فلا تعمل عند ذلك طاقات البشر، ولا تنمو الحياة، ولا تعمَّر الأرض.

والله ﷻ قد امتن على عباده بالسكينة، ولكن الله ﷻ يحذرنا في هذه الآيات من عواقب تأْليه أنفسنا بدلًا من أن نسير على البرنامج الذي رسمه لنا ربنا ﷻ، فنجمع بين الاطمئنان في المعيشة، وبين القلق من أن نخالف أمر الله ﷻ، أو أن نستكبر عن اتباع آياته، فذلك يؤدي إلى الظلم والعنصرية والتوحش الرأسمالي، والله ﷻ يريد منا الإيمان الذي يسبب الأمن النفسي والجماعي، والتقوى التي تعني إيقاظ الضمير ومراقبة النفس، ونبذ الاستكبار، ولكن ذلك لا يعني عدم الخوف من الله ﷻ حال معصيتنا له، فهذا الاطمئنان الذي يجتمع مع عدم الأمن من مكر الله ﷻ هو من

---

(١) أحمد (٧٥٧٦)، وقال محققو المسند:"إسناده ضعيف لجهالة الراوي عن أبي هريرة. أبو عمران الجَوني"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٢٩٨).

خصائص المؤمنين المدهشة، فقد قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أي: يعملون الصالحات ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠] ،أي: قلوبهم خائفة من عدم قبول العمل لتقصير حدث منهم، فما عاقبتهم؟ قال ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون: ٦١-٦٢]، فالسكينة والاطمئنان مع عدم الأمن من مكر الله ﷻ يؤديان إلى إعمار الحياة بالأعمال الصالحة، ولذا يطمئن المؤمن حتى لو عذبه المجرمون. كما قال خبيب بن عدي رضي الله عنه وهو على خشبة الصلب، والكفار يعذبونه:

لقد جمَّع الأحزابُ حولي وألَّبوا ... قبائلَهم واستجمعوا كلَّ مَجمعِ
وقد جمَّعوا أبناءهم ونساءهم ... وقُرِّبتُ من جذع طويل مُمنَّعِ
إلى الله أشكو غربتي ثم كربتي ... وما أرصدَ الأحزابُ لي عند مَصرعي
فذا العرشِ صبِّرني على ما يُراد بي ... فقد بضَّعوا لحمي وقد قلَّ مطمعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصالِ شلو ممزَّعِ
وقد خيَّروني الكفرَ، والموت دونه ... وقد هملت عيناي من غير مجزعِ
وما بي حِذارُ الموت، إني لميّتٌ ... ولكن حذاري جَحْمُ نارٍ مُلَفَّعِ
فلست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أيِّ جنبٍ، كان في الله مصرعي
ولست بمُبدٍ، للعدو تخشُّعًا ... ولا جَزَعًا، إنِّي إلى الله مَرجعي(١)

وهنا نسأل: عرفنا السُّنَّة العاشرة، وهي: تتابع الذنوب يؤدي إلى طبع القلوب أي تطبعها على المعاصي، فما السُّنَّة الحادية عشرة؟

الجواب:

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٧٦).

السُّنَّة الحادية عشرة: سُنَّة النِّسيان المُدَمِّر: فتميل الأمم إلى نسيان التاريخ، وتصر على تطبيع عاداتها مع إغفال أحداثه، وعدم الالتفات إليه، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

حتى نبصر بصائر هذه الآية لا بد أن نفسر كلماتها:

الكلمة (١): ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الحضارات التي أُرسل لها الأنبياء؛ سواء أكانت كبيرة أم صغيرة.

ما فائدة اسم الإشارة في أول هذه الآية في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ﴾؟

الجواب: اسم الإشارة يؤدي معنى تعبيريًا متحركًا، ويقدم صورة مشاهدة؛ إذ لَمَّا تَكَرَّرَ ذِكْرُ القُرى الَّتِي كَذَّبَ أهْلُها رُسُلَ اللَّهِ بِالتَّعْيِينِ -في الحضارات الخمس- وبِالتَّعْمِيمِ -في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ صارَتْ لِلسّامِعِينَ كالحاضِرَةِ المُشاهَدَةِ الصّالِحَةِ لِأنْ يُشارَ إلَيْها، فَجاءَ اسْمُ الإشارَةِ لِزِيادَةِ إحْضارِها في أذْهانِ السّامِعِينَ مِن قَوْمِ مُحَمَّدٍ ﷺ، لِيَعْتَبِرُوا حالَهم بِحالِ أهْلِ تلك القُرى، فَيَرَوْا أنَّهم سَواءٌ، فَيَفِيئُوا إلى الحَقِّ، كَقَوْلِهِ -تَعالى- مشيرًا: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٣٥] أيْ: هَذا الَّذِي تُشاهِدُونَهُ تُكَوْنَ بِهِ هو كَنْزُكم، وهم قَدْ عَلِمُوا أنَّهُ كَنْزُهم، وإنَّما أُرِيدَ مِنَ الإخْبارِ بِأنَّهُ كَنْزُهم إظْهارُ خَطَأِ فِعْلِهِم[١].

الكلمة (٢): ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ سمَّى الحضارات بهذا الاسم ليخبرنا بأن أهلها كانوا مجتمعين مترابطين وفق مواثيق اجتماعية محددة؛ لأن القرية من: قَرَى الماء، إذا جَمَعَه، والقرية مصطلح قرآني سبق أن ذكرنا أنه يطلق على المدينة الكبيرة أو على المصر الجامع لعدة مدن.

الكلمة (٣): ﴿نَقُصُّ﴾ من قصَّ الأثر أي: تتبعه بدقة شديدة حتى يوصله إلى صاحبه، فهذه الكلمة في موضعها يظهر منها قوة ما ذكره الله ﷻ لنا من حكايات هذه الحضارات، فقد ذكر الله ﷻ ما يتعلق بها مما يهمنا أن نسمعه بدقة شديدة، كما يدقق قاص الأثر وراء صاحبه.

---

(١) ينظر. التحرير والتنوير (٩/ ٢٩-٣٠)

الكلمة (٤): ﴿عَلَيْكَ﴾ تبصِّرنا بحقيقة واضحة أن مصدر معلومات هذه القصص هو الله -جل مجده- وليس رسول الله ﷺ، بل الله ﷻ يقص عليه ليقصها علينا أي على الناس، ففي هذا ردٌّ على من يزعم أن القرآن من اختراع الرسول ﷺ، وبيانٌ بأن هذه القصص حق، وليست أساطير، وذلك لأن الله يقصها، ولا يمثل بها أي لا يجعلها مجرد مثال أو خيال بعيد عن الأحداث التي وقعت.

الكلمات (٥-٦): ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ (من) تبعيضية، وليست أخبارًا معتادة؛ لِأَنَّ لَها أنْباءً غَيْرَ ما ذُكِرَ هُنا مِمَّا ذُكِرَ بَعْضُهُ فِي آياتٍ أُخْرى وطُوِيَ ذِكْرُ بَعْضِهِ لِعَدَمِ الحاجَةِ إلَيْهِ فِي التَّبْلِيغِ[1].

بصيرة: تبصرنا هاتان الكلمتان ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ بأن الله ﷻ لم يقص علينا جميع أنباء الحضارات والأمم، بل قصَّ علينا بعضها مما نحتاج إليه، وترك ما لا نحتاج إليه، فالقصص في القرآن سيق لحاجة الإنسان، وليس لمجرد الإلهاء بسماع الحكايات.

ولذا عظَّم الله شأن الأخبار التي أخبرنا عنها، فقال: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ [الأعراف: ١٠١]، من خلال كلمة (أنباء).

ربما تتساءل: عظَّم الله ﷻ شأن الأخبار التي أخبرنا عنها، فقال: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ [الأعراف: ١٠١]، من خلال كلمة ﴿أَنۢبَآئِهَا﴾ فكيف أخبرتنا هذه الكلمة عن أهمية الأخبار التي قصها الله ﷻ علينا؟

الجواب: الأنباء[2] جمع نبأ، ويرى ابن فارس رحمه الله أنه الْإِتْيَانُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، فيُقَالُ لِلَّذِي يَنْبَأُ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ نَابِئٌ، قَالَ:

وَلَكِنْ قَذَاهَا كُلُّ أَشْعَثَ نَابِئٍ ... أَتَتْنَا بِهِ الْأَقْدَارُ مِنْ حَيْثُ لَا نَدْرِي[3]

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٣٠).

(٢) مقاييس اللغة (٥/ ٣٨٥)، المفردات في غريب القرآن (ص٧٨٨)، لسان العرب (١/ ١٦٤).

(٣) البيت للأخطل كما في لسان العرب (١/ ١٦٤).

والراغب ﵀ يرى أن النبأ خبرٌ مخصوصٌ فهو خَبَرٌ ذُو فائدةٍ عظيمةٍ، وقد يصحبه الصوت الذي يُعلن عنه ولو كان خفيًّا، فقد قال ذو الرُّمَّةِ:

وَقَدْ تَوَجَّسَ رِكْزًا مُقْفِرٌ نَدُسٌ   بِنَبْأَةِ الصَّوْتِ مَا فِي سَمْعِهِ كَذِبُ[1]

فصورت لنا كلمة (نبأ) قوة ما يقصه الله ﷻ علينا من أخبار؛ لأن النَّبَأَ هو الْخَبَرُ المخصوص الذي له شأن خاص ذو فائدة عظيمة حتى نُقِل مِنْ جهة إِلَى جهة.

الكلمات (٧-١٠): ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواو للحال أو استئناف لبيان الواقع، فالحضارات التي أخبرنا الله ﷻ عنها لم تكن مهملة من الرعاية الإلهية، بل إن الله ﷻ أرسل إليهم رسلًا، وجعل مع الرسل بينات أي براهين واضحة مبينة لائحة تدلهم على أن هؤلاء الرسل رسل من عند الله ﷻ، وليسوا كذابين أو مزيفين أو دجالين، فرأى أهل تلك القرى هذه البينات بصورة واضحة حتى أقيمت عليهم الحجج.

والبينات: جمع البينة، مشتقة من البين وهو الحيز المنفصل المبتعد المُتَّضح المُنْكَشف، وليس المبتعد المختفي، ولذا قيل منه: بَانَ واسْتَبَانَ وتَبَيَّنَ كما قال الله سبحانه: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ﴾ [العنكبوت:٣٨]، فالبينة هي القضية المنفصلة الواضحة الكاشفة للحقيقة التي تبين بذاتها عن صدق دعوى النبوة، فهي حجة قوية ظاهرة في حجيتها عقلية كانت أو محسوسة، وهي توضح للناس كيف نظَّم الله ﷻ حياتهم.

الكلمة (١١): ﴿فَمَا﴾ الفاء للتفريع على ما سبق، وكأَنَّ قائلًا قال: بما أن الرسل جاءتهم بالبينات، فهل آمنوا؟ وإن كفروا أولًا، فهل راجعوا أنفسهم فآمنوا بعد أن رأوا البينات واضحة؟

فجاء الجواب، وابتدئ فيه بالفاء كأن الله ﷻ قال: ولما جاءتهم رسلهم بالبينات كفروا، وكذبوا في غالبهم، فالفاء تعقيبية تفريعية تبين النتيجة التي حدثت بعد ذلك.

الكلمات (١١-١٣): ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ أي: فالنتيجة أنهم امتنعوا عن الإيمان، ولم يقل: فلم يؤمنوا، بل قال: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾، وذلك لأن هذا التعبير أقوى في وصف امتناعهم عن الإيمان،

---

(١) ديوان ذي الرمة (ص: ١٧)، (الرِّكز): الصوت تسمعه من بعيد، و(المُقْفِر): الخالي، و(نَدُسٌ): فطن.

كأنه نفى وجود كينونتهم مع الإيمان، وهنا ينشأ سؤال: إن لم يؤمنوا أول مرة، أفما آمنوا مع بقاء الأنبياء مدة طويلة فيهم؟ فيأتي الجواب في:

الكلمات (١٤-١٧): ﴿بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ تبصِّرنا بالسبب الذي لأجله لم يؤمنوا حتى صارت كينونتهم كأنها جزء من الكفر، وسبب ذلك أنهم كذبوا أولًا ثم أعادوا التكذيب مرات متعددة إما عنادًا وإما كبرًا، وإما خوفًا على مصالح دنيوية ضيقة. فلما كرروا التكذيب عاقبهم الله ﷻ بأن لم يوفقهم للإيمان.

الكلمات (١٨-٢٣): ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فلما امتنعوا عن الإيمان أول مرة، ثم كرروا التكذيب، عاقبهم الله ﷻ بعدم التوفيق للإيمان مهما سمعوا من وعظٍ وتذكير، وكما فعل الله ﷻ بهم ذلك، فقد فعل بغيرهم؛ بسبب سُنَّة الطبع، وخلاصتها: جاءت البينات، فكذبها بعض الناس، ثم أعاد التكذيب والإيذاء لحاملي هذه البينات، فينتج من ذلك الطبع على قلوب الكافرين، فيصيرون متطبعين مع المعاصي والفسوق والكفر، بل ويتجهون إلى أن يكونوا ناشرين للكفر في الأرض.

فإن قلت: هل تظهر حكمة لتنوع الأسلوب بين هذه الآية في قوله: ﴿يَطۡبَعُ﴾ والآية التي قبلها حيث قال: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾؟

الجواب: فالإتيان بها بِنُون التعظيم ﴿نَطۡبَعُ﴾ في الآية السابقة يدل على إجلال الله ﷻ، وتعظيمه في أفعاله، وربما دل على أن الله ﷻ يسَخِّر بعض مخلوقاته لتحقيق هذا الفعل كما في قوله: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ أي: جعلنا جبريل يرتله عليك لتسمعه من مخلوق مثلك، وذلك لأن الطبع فعل إلهي قد يتم بكلمة (كُن)، وقد يحدث بسبب أن ملكًا يرسله الله ﷻ لينكت في قلب المكذب أو العاصي نكتة سوداء، ومع تكاثر النُكَت السوداء يحدث الران إلى أن يصل إلى الطبع، ولكننا لا نرى هذا الطبع لأنه مسألة غيبية مثلها تمامًا مثل المَلَك الذي يرسله الله ﷻ عندما تمر على النطفة ثنتان وأربعون يومًا، فعن عَبْد اللهِ بْن مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ؟ فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ

الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ، وَلَا يَنْقُصُ»(١)، فالناس لا ترى هذه الملائكة، ولكن تؤمن بوجودها.

أما ﴿يَطْبَعُ﴾ بالياء فتدل على الفعل الإلهي المنفرد المعظِم لتوحيد الله في أفعاله، ونحتاج إلى استحضار كلا المعنيين: المعنى الذي يظهر لنا بِنُون العظمة، والمعنى الذي يظهر لنا بياء التوحيد.

فتاريخ الحضارات التي أقامها بنو آدم يدل على خطورة رد الحق عندما يصل إلى الأسماع، فإن ذلك يؤدي إلى أن يطبع الله ﷻ القلوب فلا تقبل الحق عقوبةً لها على رده وعدم التفكر فيه، والناجون من أَسْر قبِيل الشيطان هم الذين يحافظون على العهد الرباني، وعلامة ذلك أن يجتنبوا الفسق في الأرض.

وهنا نضع التساؤل الآتي: نقرأ لبعض المتعصبين رأيًا غريبًا أن رسول الله ﷺ تعلم القرآن من بشر، فقد قال (مكسيم رودنسون) في كتابه (محمد): "إن قصص القرآن ما هي إلا ترديد لما تعلمه محمد وسرقه من الأديان السابقة، ومن الكتب اليهودية". وزعم (ريتشارد بل) مؤلف كتاب (مقدمة القرآن) أن النبي ﷺ قد اعتمد في كتابته للقرآن على الكتاب المقدس، وخاصة على العهد القديم في قسم القصص، فكيف وجدنا في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ [الأعراف: ١٠١] الردَّ على هؤلاء الذين يقولون: إن القرآن مأخوذ من الكتب السابقة؟

الجواب: تأمل كيف يعلمنا الله ﷻ الردَّ على هذه الشبهة المتهافتة، وأنا هنا سأذكر لك ما تبصرنا به هذه الآية فقط من رد:

الرد الأول: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى قوة تلك الحضارات وعظمتها ﴿نَقُصُّ﴾ نحن ولستَ أنتَ، فلم تأت بها من عندك، ولم تأت بها من معلِّم من البشر غيرك، بل نحن الذين نقصها عليك، والذي يبصرنا بذلك كلِّه نون التعظيم في كلمة ﴿نَقُصُّ﴾.

(١) مسلم (٢٦٤٥).

الرد الثاني: تبصرنا مادة (قَصَّ) أن سرد الحكايات التاريخية كان دقيقًا جدًّا حتى كأنك تقتص أثر تلك الأمم، وتتابعه بدقة، لتعرف تفاصيل أخبارها، وقد أظهر الله ﷻ في أخبارها ما يخالف ما ورد في توراة عِزْرا (عزير)، وفي كتب (التناخ) اليهودي التي كتبها البشر.

ويكفي لتعرف بطلان هذا الادعاء أن تسألهم: أين توجد عندكم قصة هود، وقصة صالح عليهما السلام؟ سيجيبون أنها غير موجودة عندهم أصلًا، فكيف يقال: إن النبي ﷺ تلقاها منهم؟!

بل حتى في القصص المشتركة بيننا وبينهم نجد اختلافًا كبيرًا في التفاصيل، فانظروا إلى سرد قصة لوط عليه السلام لتكتشفوا بشاعة ما يحكيه كتابهم المقدس -كما يزعمون- عن لوط عليه السلام، وكذلك نجد اختلاف التفاصيل بين القرآن وكتابهم الموجود الآن، فنقول لهم: أنتم عندما تزعمون أن القرآن مأخوذ من توراة عزرا أو من بقية كتب التناخ فأنتم تكذبون، وتكذبون كذبًا غبيًّا يظهر فيه العناد والجهل المركب، وخذ مثالًا:

في سفر التكوين:

(١٩: ١): "فَجَاءَ الْمَلاَكَانِ إِلَى سَدُومَ مَسَاءً، وَكَانَ لُوطٌ جَالِسًا فِي بَابِ سَدُومَ. فَلَمَّا رَآهُمَا لُوطٌ قَامَ لاسْتِقْبَالِهِمَا، وَسَجَدَ بِوَجْهِهِ إِلَى الأَرْضِ.

(١٩: ٢): وَقَالَ: «يَا سَيِّدَيَّ، مِيلاَ إِلَى بَيْتِ عَبْدِكُمَا وَبِيتَا وَاغْسِلا أَرْجُلَكُمَا، ثُمَّ تُبَكِّرَانِ وَتَذْهَبَانِ فِي طَرِيقِكُمَا». فَقَالا: «لا، بَلْ فِي السَّاحَةِ نَبِيتُ».

تعليق: وفي القرآن ملائكة وليسا ملَكين، وكذلك لا يوجد في القرآن سجود لوط لمخلوق، ثم قال:

(١٩: ٣): فَأَلَحَّ عَلَيْهِمَا جِدًّا، فَمَالا إِلَيْهِ وَدَخَلا بَيْتَهُ، فَصَنَعَ لَهُمَا ضِيَافَةً وَخَبَزَ فَطِيرًا فَأَكَلا. **تعليق:** بينما نعلم في القرآن أن الملائكة لا يأكلون، وقد امتنعوا عن الأكل عند إبراهيم قبل لوط عليهما السلام، فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود: ٦٩ - ٧٠].

وكذلك يوجد اختلاف من حيث الأهداف المذكورة من هذه القصص، فقصص كتابهم المقدس يهدف إلى إثبات النزعة العنصرية الإسرائيلية.. هل تصدق أنها تدور حول ربوبية الله ﷻ لشعب واحد مختار؟ وبقية البشرية لا وزن لهم، وكيف يقبل عاقل وجود فئة تؤيد هذه العنصرية المقيتة؟ ولماذا

لا يتكلمون عنها في إعلامهم؟ فبدلًا من أن يكون الهدف تعظيم الله وتوقيره يكون الهدف تعظيم قتلة الأنبياء والأطفال والنساء؛ لأنهم الشعب المختار كما يزعمون ويكذبون.

والاختلاف من حيث الأسلوب، وطريقة عرض تلك القصص، وخذ أنموذجًا من هذا القصص الركيك، ففي سفر هوشع:

(١: ٢) أَوَّلَ مَا كَلَّمَ الرَّبُّ هُوشَعَ، قَالَ الرَّبُّ لِهُوشَعَ: «اذْهَبْ خُذْ لِنَفْسِكَ امْرَأَةَ زِنًى وَأَوْلاَدَ زِنًى؛ لأَنَّ الأَرْضَ قَدْ زَنَتْ زِنًى تَارِكَةً الرَّبَّ»...

(١: ٤) ... لأَنَّنِي بَعْدَ قَلِيل أُعَاقِبُ بَيْتَ يَاهُو عَلَى دَمِ يَزْرَعِيلَ، وَأُبِيدُ مَمْلَكَةَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ. بينما في القرآن يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وقد تسأل: لماذا قال ﷻ: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾؟ وما البينات القرآنية الإعجازية التي تظهر في هذه الآية؟

الجواب: هذا التعبير الرائع ينبئنا بمقصدٍ عظيم من مقاصد القرآن الكريم، وهو الإعجاز الغيبي: إذ قص الله ﷻ على العالَم تفاصيل الحضارات الخمس السابقة، وكذلك أجمل حال الأمم الأخرى التي لم يذكر تفاصيلها.

بصيرة: في هذه القصص وجدنا دراسة تاريخية نفسية اجتماعية لا يمكن أن نجد مثلها في دقتها، وصدقها، و أثرها النفسي والاجتماعي في بناء الأفراد والأمم، والحفاظ على الحضارات من الانهيار، وحسبك أن الذي يتلو ذلك أمّيٌّ ﷺ بُعث في قوم أميين، وفي هذا التفصيل نرى الجمع بين النواحي العقدية والنفسية والاجتماعية، ونطّلِع على الأبعاد الإنسانية الضخمة.

وهذا الإعجاز الإنبائي يفيدنا في "الِاسْتِدْلال عَلى نُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، إذْ عَلَّمَهُ اللَّهُ ﷻ مِن عِلْمِ الأوَّلِينَ ما لَمْ يَسْبِقْ لَهُ عِلْمُهُ، ووعده الله ﷻ بِالزِّيادَةِ مِن ذَلِكَ"(١).

ولماذا قَالَ: ﴿نَقُصُّ﴾ فأتى بالفعل مضارعًا ولم يقل: قَصَصْنَا؟

الجواب: التعبير بالفعل المضارع ﴿نَقُصُّ﴾ يبصرنا بالتَّجَدُّدِ والِاسْتِمْرارِ، والإشارة إلى التهديد لمن أعرض عن الاعتبار.

لأنه ينقل هذه القصص لنا كأننا نرى أحداثها، ولأن تلك الأحداث تتكرر مشاهدها أمام أعيننا، فربما غفلنا عنها، فيأتي الفعل المضارع؛ ليصور لنا أنها تتجدد في كل زمان ومكان بأصل أحداثها وإن اختلف أبطالها، وقد روى حُذَيْفَة ﷺ ما يشبه ذلك في تذكير النبي ﷺ العالم بما سيحصل في المستقبل، فقال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامًا مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَ بِهِ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ عَلِمَهُ أصحابي هَؤُلاءِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشيء قَدْ نَسِيتُهُ فَأَرَاهُ فَأَذْكُرُهُ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ ثُمَّ إِذَا رَآهُ عَرَفَهُ»(٢).

وكذلك السنن الاجتماعية التي تمر بها الأمم يقص علينا من أنبائها، فتتكرر في أمتنا وفي واقعنا، وفي واقع الأفراد والأمم والحضارات حولنا، فإن نسينا الوصف القرآني لها، ووقعت الأحداث نتذكر ذلك الوصف؛ عندما نُعمِلُ فكرنا بصورة صحيحة، وحينها نذكر قول ربنا ﷻ: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ أي: وأنباء ما حولها مما يشبهها.

بصيرة: هذه القصص التي أنبأنا الله ﷻ عنها تبصّرنا أن الله ﷻ يحب الخير للعالم، فإن عظمة تلك الحضارات مع انهيارها و إبادتها يخبرك بأن الله ﷻ يريد منها أن تسمع لتستفيد لا لتُعرِض.

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٣٠).

(٢)البخاري (٦٦٠٤)، ومسلم (٢٨٩١) واللفظ له.

فإن سألت: ما الموقع المعنوي لقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠١-١٠٢]؟

الجواب:

بصيرة: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ﴾

تبصّرنا بكمال عدل الله ﷻ معهم؛ إذ لم يعاقبهم العقوبة الدنيوية أو الأخروية إلا بعد أن جاءتهم رسلهم بالبينات، وبعد أن أصروا على التكذيب.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ أيْ: والحالُ أنَّهُ قَدْ ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ أيْ: أهْلَ القُرى لِأنَّهُمُ المَقْصُودُونَ بِالذّاتِ، ﴿رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وهذه الجملة الحالية جواب عظيم وتلخيص لأهم حقائق تاريخ الأمم والحضارات؛ إذ ربما انبعث أناسٌ بدافع الرحمة، فقالوا: وهل كانت هذه الحضارات تستحق العقوبات؟ ألم يكن من الرحمة ألا تُدَمَّر؟

يجيبنا الله ﷻ بهذه الحقيقة: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠١-١٠٢].

فرسلهم الذين أرسلهم الله ﷻ قد جاءتهم بالبينات، فلماذا ذكر البينات؟

الجواب: أخبر الله ﷻ بأنه قد أقام الحجة على تلك القرى من الأمم والحضارات.. ولكن كيف أقام الحجة؟

أرسل سبحانه الرسل، ولكنه لم يرسل الرسل فحسب ليخبروا بأنهم رسل من الله ﷻ دون برهان، بل أرسل رسله إليهم بالبينات، فذكر البينات ليبين ظهور البراهين الدالة على أن هؤلاء رسل، وليسوا مدعين أو مفترين، فلا بد من أن يأتي الرسول بالبينة التي تثبت صدقه في رسالته، "والفاءُ في قَوْلِهِ:

﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ لِتَرْتِيبِ الإخْبارِ بِانْتِفاءِ إيمانِهِمْ عَنِ الإخْبارِ بِمَجِيءِ الرُّسُلِ إلَيْهِمْ بِما مِن شَأْنِهِ أنْ يَحْمِلَهم عَلى الإيمانِ.

وصِيغَةُ ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ تُفِيدُ مُبالَغَةَ النَّفْيِ بِلامِ الجُحُودِ الدّالَّةِ عَلى أنَّ حُصُولَ الإيمانِ كانَ مُنافِيًا لِحالِهِمْ مِنَ التَّصَلُّبِ في الكُفْرِ... والمَعْنى: فاسْتَمَرَّ عَدَمُ إيمانِهِمْ وتَمَكَّنَ مِنهُمُ الكُفْرُ في حِينِ كانَ الشَّأْنُ أنْ يُقْلِعُوا عَنْهُ"[1].

في قوله: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ﴾ [الأعراف: ١٠١]، فهل لنا أن نسأل عن الحكمة في مجيء كلمة ﴿بِهِۦ﴾ بعد قوله: ﴿كَذَّبُواْ﴾ في سورة يونس ؑ، فقال ربنا: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [يونس: ٧٤]، ولم تأت في سورة الأعراف؟

الجواب: حذف كلمة ﴿بِهِۦ﴾ هنا ليبين أن المستكبرين يكذبون تكذيبًا عامًّا، فيدخل في تكذيبهم: تكذيبهم للأنبياء والمصلحين، وتكذيبهم بالبينات مهما كانت واضحة الحجة عليهم، وتكذيبهم يتجدد، بينما أثبتها في سورة يونس ؑ لتتجه أنظارنا وأفكارنا إلى تكذيبهم لأوضح ما أمامهم، وهو ما جاء به الرسول من البينات.

دلالات ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ ﴿١٠١﴾﴾:

في قول ربنا ﷻ: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ تجذبنا كلمتا ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾، فما البصائر التي تبصّرنا بها؟

الجواب: كلمة ﴿قَبۡلُۚ﴾ جاءت في موقع مثيرٍ من الآية، وقُطِعت عن الإضافة، فأظهرت لنا مجموعة من الصور:

الصورة الأولى: تعبر هذه الكلمة عن الجهد العظيم الذي قام به أولئك الرسل المكرمون، وتخبرنا أيضًا بأن مستكبري تلك الحضارات قابلوا الرسل بالتكذيب، فلما عاودهم الرسل بالدعوة، ودعوهم بأساليب مختلفة في أزمنة متطاولة كرروا تكذيبهم ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٣٠-٣١).

أي: فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أوَّلًا حين جاءتهم الرسل، أي: استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرّين على ذلك، لا يرعوون ولا تلين شكيمتهم في كفرهم وعنادهم مع تكرر المواعظ عليهم، وتتابع الآيات، فهو ﷻ ينبه نبيه محمدًا ﷺ والدعاة معه على "رُسُوخِ الكُفْرِ في أنفس المجرمين المستكبرين، بِحَيْثُ لَمْ يَقْلَعْهُ مِنهم ما شاهَدُوهُ مِنَ البَيِّناتِ، ولا ما وضَعَهُ اللَّهُ ﷻ في فِطْرَةِ الإنْسانِ مِنَ اعْتِقادِ وُجُودِ إلَهٍ واحِدٍ وتَصْدِيقِ الرُّسُلِ الدّاعِينَ إلَيْهِ، ولا الوَفاءُ بِما عاهَدُوا عَلَيْهِ الرُّسُلَ عِنْدَ الدَّعْوَةِ: إنَّهم إنْ أتَوْهم بِالبَيِّناتِ يُؤْمِنُونَ بِها"[(١)].

الصورة الثانية: ذكرها بعض أهل العلم، وهي تتعلق بالذرية الآدمية حينما أخذ الله ﷻ عليها الميثاق، ووضع ذلك في فطرتهم فكابر من كابر منهم، فأخبر -جل ثناؤه- عنهم، أنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما هم به مكذبون في سابق علمه، قبل مجيء الرسل وعند مجيئهم إليهم، "فعن أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ﴾ قال: كان في علمه يوم أقرُّوا له بالميثاق"[(٢)].

والمعنى أن الله ﷻ لما أخذ عليهم الميثاق، قال لهم فيه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ولكن بعضهم عزم على الكفر حينها، فلما جاءتهم الرسل استمروا على الكفر الذي عزموا عليه من قبل.

ويظهر لي أن هذا المعنى غير صحيح، وإن كنا نقول بأن الله ﷻ قد عَلِم المؤمن والكافر قبل أن يخلق الخلق، "فعن الربيع بن أنس رحمه الله قال: "يحق على العباد أن يأخذوا من العلم ما أبدى لهم ربهم والأنبياء، ويَدَّعُوا علمَ ما أخفى الله ﷻ عليهم، فإن علمَه نافذٌ فيما كان وفيما يكون، وفي ذلك قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾، قال: نفذ علمه فيهم، أيُّهم المطيع من العاصي حيث خلقهم في زمان آدم. وتصديق ذلك حيث قال لنوح: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ٤٨]، وقال في ذلك: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٣٢).
(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٨).

﴿٢٨﴾ [الأنعام: ٢٨]، وفي ذلك قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]، وفي ذلك قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ولا حجة لأحد على الله ﷻ"[١].

الصورة الثالثة: ﴿فَمَا كَانُواْ﴾ لو أحييناهم بعد هلاكهم ومعاينتهم ما عاينوا من عذاب الله، ﴿لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ﴾ أي: من قبل هلاكهم، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وهذا قول مجاهد رحمه الله، أورده الطبري رحمه الله فقال: "تأويلٌ لا دلالة عليه من ظاهر التنزيل، ولا من خبر عن الرسول ﷺ صحيح. وإذا كان ذلك كذلك، فأولى منه بالصواب ما كان عليه من ظاهر التنزيل دليل"[٢].

الصورة الرابعة: أوردها الطبري رحمه الله فقال: "فما كان هؤلاء الذين وَرِثوا الأرض يا محمد، من مشركي قومك من بعد أهلها، الذين كانوا بها من عاد وثمود، ليؤمنوا بما كذب به الذين ورثوها عنهم من توحيد الله ووعده ووعيده"، وقد قال الطبري رحمه الله إن هذا خطر بباله، وأنه لو قاله أحدٌ لكان وجهًا ومذهبًا –ثم قال-: "غير أني لا أعلم قائلًا قاله ممن يُعتمد على علمه بتأويل القرآن"[٣].

وهذا تورعٌ عجيب والآية تحتمله، ولكن الصحيح أن هذا المعنى ليس قويًّا؛ لأنه أرجع الضمير إلى متعدد مع أن ظاهره اتحاد المرجع، وذلك لا يجوز دون قرينة، فكأن المعنى: فما كان المشركون المعاصرون ليؤمنوا بما كذب به المشركون الذين كانوا من قبلهم.

الصورة الخامسة: أوردها الزجاج ثم الزمخشري رحمهما الله: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ بَعْدَ رُؤْيَةِ المُعْجِزاتِ بِما كَذَّبُوا بِهِ قَبْلَ رُؤْيَةِ تِلْكَ المُعْجِزاتِ.. نعم ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ عند مجيء الرسل بالبينات بما كذبوه من آيات الله من قبل مجيء الرسل، أو بعد مجيئهم وقبل أن يروا الآيات، وهذه هي الصورة الأولى تقريبًا، ويؤيد هذا المعنى ما سيأتي في هذه السورة عن فرعون، فإنه طلب الآية على صدق موسى عليه السلام، فلما أراه آيتي العصا واليد نقض ما أظهره في كلماته من النظر في بينات موسى عليه السلام، وحتى بعدما آمن السحرة ازداد عتوًا وفجورًا.. أي أن الطبيعة الرديئة التي يصرون عليها قبل مجيء

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٨-٩).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٩- ١٠).

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٩ ط التربية والتراث).

البينات تصاحب كثيرًا منهم بعد مجيء البينات، فإن الإنسان يعرف بفطرته السليمة أنه لا يجوز الإيذاء ولا الاستعلاء، فيخالف هذه الفطرةَ بعضُ المستكبرين، فيستعلون على الناس، فإذا أتاهم الناصحون لم يؤثر ذلك عليهم، ومعنى اللام في ﴿لِيُؤْمِنُواْ﴾ تأكيد النفي، وأنَّ الإيمان كان منافيًا لحالهم في التصميم على الكفر.

"وَمِنْ وُجُوهِ تَسْلِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْآيَةِ إِعْلَامُهُ أَنَّ مَنْ وَصَلُوا بِالْإِصْرَارِ عَلَى الْجُحُودِ وَالْعِنَادِ أَوِ التَّقَالِيدِ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنْ فَسَادِ الْفِطْرَةِ، وَإِهْمَالِ اسْتِعْمَالِ الْعَقْلِ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَإِنْ وَضَحَتْ، وَلَا بِالْآيَاتِ وَإِنِ اقْتُرِحَتْ، فَقَدْ كَانَ كُفَّارُ مَكَّةَ يَقْتَرِحُونَ عَلَيْهِ الْآيَاتِ، وَكَانَ يَتَمَنَّى أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ ﷻ مَا اقْتَرَحُوا مِنْهَا حِرْصًا عَلَى إِيمَانِهِمْ، حَتَّى بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى لَهُ هَذِهِ الْحَقَائِقَ مِنْ طِبَاعِ الْبَشَرِ وَأَخْلَاقِهِمْ"، وذلك كما في قَوْله تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١٠]، ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾ [القمر: ٢-٣][1].

وقد تسأل: ما الأثر النفسي على النبي ﷺ ثم على كل داعية عندما يسمع قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١]؟

الجواب: تُصَوِّر الآية أنها تنزل على النبي ﷺ وهو يجد جحافل قريش وقادتها يكذِّبونه، يجد سفهاءهم يناوئونه ويردون عليه، فيخبره الله ﷻ بالأمم والحضارات السابقة، كيف كانت قوتها، وكيف جاءتهم رسلهم بالبينات كما جاء قومه بالبينات، وكيف صدوا وأعرضوا، فيكون وقع هذه الآيات في نفسه وقع الشفاء العظيم، والمدد الروحي والنفسي الهائل ليستمر في أداء رسالته غير عابئٍ بتكذيب قومه له، وسفههم عليه وعلى ما جاء به، فليس تكذيبهم له لتقصيره في أداء رسالته، ولا لضعف بيِّناته التي جاء بها، ولكنه شأن المكذبين اللاهين.

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٣٠).

ثم يخبرنا الله ﷻ عن سبب التكذيب ونتيجته في وقتٍ واحد فيقول: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فكيف اجتمعت النتيجة والسبب معًا؟ ولماذا عبر الله ﷻ عن كفر المستكبرين بقوله: ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بصيغة الفاعل؟

الجواب: بَذَل الرسل جهدهم في نصح أقوامهم، فاختارت قوى الملأ المستكبرة ومن وَالَاهُم الكفرَ، كان ينقصهم العقل المفتوح والقلب المفتوح غير المعاند. كان ينقصهم أن يُفَعِّلوا الفطرة الحية التي تستقبل الخير، وتستجيب له، وتنفعل به. فلما لم يُجبروا أنفسهم على ترك العناد، ونبذ الاستكبار طبع الله ﷻ على قلوبهم وأغلقها جزاء وفاقًا، فما عادت تستجيب، ولا تنفتح للخير، ولا تتلقى الإيمان، ولا تتحرك عاطفتها بما يجعلها تنجو من غضب ربها ﷻ.

وسر التعبير بصيغة الفاعل ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أن يُظهر لنا ربنا ﷻ رسوخهم في الكفر، وهنا نعلم لماذا عاقبهم الله ﷻ بأن طبع على قلوبهم، لقد استحقوا ذلك، فهم قد اختاروا ذلك الاختيار الآثم، ثم زادنا ربنا ﷻ بيانًا أنه حكم فيهم بالعدل الظاهر، فقال: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

فإن قلت: ما وجه المناسبة والحكمة في التعبير القرآني بين قوله تعالى: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، وقوله تعالى في الآية التي تليها: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]؟

الجواب: هذه الآية تنبئ المسلمين بخطورة أن يقعوا في فخِّ (الطبع على قلوبهم)، فيكونون ممن أَمِن مكر الله ﷻ في جانبٍ من الجوانب، فلا يأْمَن مكر الله إلا القوم الخاسرون، ستقول: إنما ذكر الله ﷻ الكافرين، فما علاقة المسلمين؟

أقول: هذا السؤال ذاته دليل على بداية الطبع على القلوب، وعدم السماع والاستماع؛ فإن المسلمين أولُ الناس شأنًا في ضرورة الانتباه إلى حال أنفسهم، والنظر في سماع كلام ربهم ﷻ، والاهتمام باستلهام الهداية منه، ويظهر ذلك من جهات:

الأولى: القرآن نزل منذرًا للمؤمنين المتقين الذين يخشون ربهم ﷻ قبل غيرهم، فكيف جعل بعضهم نفسه غير مقصودٍ بذلك.. أفلا يسمعون؟ هذا هو الطبع، فاسمع للقرآن ينبئك بذلك بآياتٍ

موقظة منبهة: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ [فاطر: ١٨]. فإذا شعروا بقيمة الإنذار انتقلوا إلى العمل بموجب ذلك، فاستحقوا التبشير، وجمع الله ﷻ بينهما في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

بل قرَّرنا في معنى قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢] بأن المؤمنين شاركوا غيرهم في أن يكون القرآن منذرًا لهم، ثم زادهم القرآن خصوصية في أن يكون ذكرى لهم لئلا يقعوا في الغفلات، فيأمنوا مكر الله تعالى مجده.

الثانية: أن اسم الإشارة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في قول الله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١] يخبرنا بأنه يشير إلى شيء سابق مفهوم، وهو قوله في الآية السابقة: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، فكأنه يقول: ونطبع على قلوب الغافلين والمستكبرين ممن ينتمون للمؤمنين ولغيرهم، فهم لا يسمعون كلامنا سماع تأثر واعتبار واتعاظ وعمل، وكما وجدنا الطبع لهؤلاء نجد أن الله ﷻ يطبع على قلوب الكافرين، فكأنه يقول: كما وصفنا "عِنَادَ هَؤُلَاءِ وَإِصْرَارَهُمْ عَلَى ضَلَالِهِمْ، وَعَدَمَ تَأْثِيرِ الدَّلَائِلِ وَالْبَيِّنَاتِ فِي عُقُولِهِمْ، يَكُونُ الطَّبْعُ عَلَى قُلُوبِ الكافرين"[1].

الثالثة: كلمة (كافرين) قررنا أنها تشمل الكفر المُخرِج من الملة، وكفر النعمة، وهو كفر الأَشَر والبطر والغفلة والكبر والعجب والغرور، وهو كثيرٌ فاشٍ في المسلمين، فهم أولى أن يخافوا من مقتضيات هذه الآيات، نسأل الله السلامة والعافية.

ونلاحظ وصف الله ﷻ هؤلاء الكفار بالكافرين فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وهو جمع مذكر سالم، فلماذا اختار هذه الصيغة دون غيرها؟

الجواب: هذا الوصف بهذه الصيغة يدل على رسوخهم في الكفر، فالكفر صار صفة لازمة لهم بِأَنْ يَأْنَسُوا بِالْكُفْرِ وَأَعْمَالِهِ؛ حَتَّى تَسْتَحْوِذَ أَوْهَامُهُ عَلَى أَفْكَارِهِمْ، وَيَمْلَأَ حُبُّ شَهَوَاتِهِ جَوَانِبَ قُلُوبِهِمْ،

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٣٠).

وَيَصِيرَ وِجْدَانًا تَقْلِيدِيًّا لَهُمْ، لَا يَقْبَلُونَ فِيهِ بَحْثًا، وَلَا يَسْمَعُونَ فِيهِ نَقْدًا، فَيَكُونُ كَالسِّكَّةِ الَّتِي طُبِعَتْ فِي أَثْنَاءِ لِينِ مَعْدَنِهَا بِصَهْرِهِ وَإِذَابَتِهِ ثُمَّ جَمَدَتْ فَلَا تَقْبَلُ نَقْشًا وَلَا شَكْلًا آخَرَ[١].

ولنسمع لآلام السيد رشيد رضا رحمه الله وهو يتقطع حسرات على واقع المسلمين مع كتاب ربهم عز وجل، فيقول: "قَدْ كَانَ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ وَهَذَا كِتَابُهُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ عز وجل أَنْ يَتَّقُوهُ تَعَالَى بِانْتِقَاءِ كُلِّ مَا قَصَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ ذُنُوبِ الْأُمَمِ الَّتِي هَلَكَ بِهَا مَنْ قَبْلَهُمْ وَزَالَ مُلْكُهُمْ، وَدَالَتْ بِسَبَبِهَا الدَّوْلَةُ لِأَعْدَائِهِمْ؛ إِذْ بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ ذُنُوبَ الْأُمَمِ لَا تُغْفَرُ كَذُنُوبِ بَعْضِ الْأَفْرَادِ؛ وَسُنَّتَهُ فِيهَا لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَحَوَّلُ، وَلَكِنَّهُمْ قَصَّرُوا أَوَّلًا فِي تَفْسِيرِ أَمْثَالِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُبَيِّنَةِ لِهَذِهِ الْحَقَائِقِ، ثُمَّ فِي وَعْظِ الْأُمَّةِ بِهَا، وَإِنْذَارِهِمْ عَاقِبَةَ الْإِعْرَاضِ عَنْهَا، وَتَرْكِ الِاتِّعَاظِ بِتَدَبُّرِهَا.

وَمَنْ يَقْرَأُ شَيْئًا مِنْ تَفْسِيرِهَا فَإِنَّمَا يُعْنَى بِإِعْرَابِهَا، وَالْبَحْثِ فِي أَلْفَاظِهَا، أَوْ جَدَلِ الْمَذَاهِبِ فِيهَا، ثُمَّ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ مَعَانِيَهَا خَاصَّةً بِالْكَافِرِينَ، وَيُفَسِّرُونَ الْكَافِرِينَ بِمَنْ لَا يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ مُسْلِمِينَ.

وَطَالَمَا أَنْكَرَ عَلَيْنَا بَعْضُ أَدْعِيَاءِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ، أَنَّنَا جَعَلْنَا الْآيَاتِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ شَامِلَةً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ مَأْفُوكِينَ عَنْ تَدَبُّرِهَا الْمُرَادِ مِنْهَا جَاهِلِينَ لِسُنَنِ الْعَامَّةِ فِيهَا، وَكَذَلِكَ كَانَ يَقُولُ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَظَنُّوا كَمَا ظَنُّوا أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحَابِي الْأَقْوَامَ لِأَجْلِ رُسُلِهِمْ، وَأَنَّهُ يُعْطِيهِمْ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِجَاهِهِمْ لَا بِاتِّبَاعِهِمْ، وَقَدْ رَاجَتْ هَذِهِ الْعَقَائِدُ الْفَاسِدَةُ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَتْ تِجَارَةً لِلشُّيُوخِ الْمُقَلِّدِينَ الْجَامِدِينَ وَالدَّجَّالِينَ الضَّالِّينَ الْمُضِلِّينَ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ [البقرة: ١٦]، بَلْ كَانُوا فِتْنَةً لِلْكَافِرِينَ وَحُجَّةً عَلَى الدِّينِ، كَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ، وَفِي هَذَا السِّيَاقِ آنِفًا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]؟"[٢].

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٣٠).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٢٨).

السنن الإلهية التي تضمنتها آية: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٠١]:

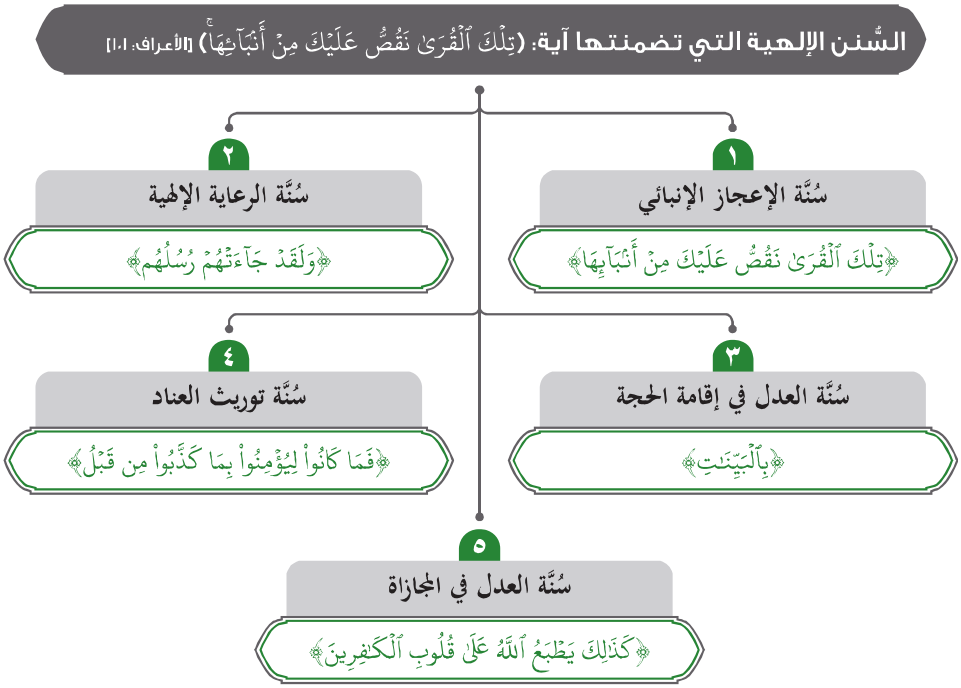

مفصل تفسير سورة الأعراف (٥) — عبد السلام مقبل المجيدي

فإن قلت: هلَّا لخصت بصائر الآية السابقة والسُّنَن الإلهية التي تضمنتها؟

الجواب: تكونت الآية من خمسة أقْبَاس تبصرنا بخمس سُنَن:

القَبَس الأول: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ﴾ تبصرنا بسُنَّة التفصيل أو الإعجاز الإنبائي، وهو يعني أن الله ﷻ بعظمته وسلطانه وإحاطته بخلقه هو الذي يخبرنا الأخبار العظيمة الدقيقة الصادقة المؤكدة عن الحضارات والأمم.

القَبَس الثاني: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ تبصرنا بسُنَّة الرعاية الإلهية، فإن الله ﷻ بعد أن يخلق الخلق يرعاهم ويربيهم بإرسال الرسل.

القَبَس الثالث: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ تكملة لسُنَّة التربية الإلهية، وسُنَّة العدل الإلهي في إقامة الحجة، فإن الرسل لا يدَّعون أنهم رسل دون أن يقيموا بينات على رسالتهم، والبينات أعم من المعجزات، البينات مشتقة من بَان إذا انفصل فانكشف فوَضَح أمام الناظرين، فالنبي ﷺ جاء ببينات واضحة، فدعا الناس إلى ترك عبادة الأصنام وإلى أن يعبدوا الله الواحد القهار.. المسألة لا تحتاج إلى زيادة، فالبينة العقلية هنا واضحة: قوم يعبدون الأصنام، ورجل مشهور بالصدق والأمانة يدعوهم إلى عبادة ربهم ورب الأصنام.. هل نحتاج إلى بينة أكثر من هذا على صدق دعوته؟

لا نحتاج إلى أن يُسيِّر الجبال أو أن يُجْرِي الأنهار ليظهر لنا صدق دعوته.

القَبَس الرابع: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ﴾ واضحٌ أن الكلام هنا عن قومٍ كذبوا في وقتٍ سابق، والنتيجة أنهم لم يغيروا رأيهم في وقتٍ لاحق، وبذلك تتضح سُنَّة جديدة هي: التكذيب السابق للبينات قد يورث العناد اللاحق، فمهما اتضحت البينات يُصِر المكذب على البقاء على تكذيبه، فلا يؤمن بما يراه ويسمعه إما عنادًا وإصرارًا، وإما عقوبة من الله حلت عليه بسبب تكذيبه.

القَبَس الخامس: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٠١﴾ [الأعراف: ١٠١] تبصرنا بسُنَّة العدل الإلهي في المجازاة، فإن المعاند المصرُّ على التكذيب، أو على الكفر الذي يغطي الحق يعاقبه الله ﷻ بأن يطبع على قلبه، فيصبح المنكَرُ في حياته طبيعة، وتصبح الفحشاء في حياته طبيعة لا يحيد عنها، ويراها هي التي ينبغي أن تسود، وهنا يزول عجبنا عندما نرى أشخاصًا ومشاريع وبرامج ومؤسسات تقوم على نشر الفحشاء في الأرض.

وهنا يأتي سؤال يبين لنا الانتقال إلى الآية (١٠٢): إذا كان الله ﷻ يطبع على قلوب الكافرين، فما ذنبهم؟

فتفاجئك الآية (١٠٢) بالجواب عن السؤال الذي ربما خطر في أنفسنا أو دار في مخيلتنا، فيقول الله ﷻ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، فهذه الآية تكملة لما سبق، فهي تبصِّرنا أنَّ طبع الله ﷻ على قلوب الكافرين كان نتيجة لتركهم العهد الذي بينهم وبين ربهم، والآن انظر لجمال تركيب القبسين أو الجملتين اللتين تكونان الآية:

القبس الأول: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ فهذا القبس يبصّرنا أن أكثر البشر الذين يعيشون في القرى والحضارات، ويكذبون بالبينات لا يقيمون عهد الله، ولا أي عهدٍ صغر أم كبر، وهنا يأتي سؤالٌ جديد: هل هؤلاء الذين تركوا العهد اكتفوا بتركه أم زادوا على ذلك إجرامًا أسوأ؟ وحتى يتضح السؤال نضرب المثال:

ربما أعطيت دَينًا لخمسة أشخاص، وكلهم عاهدك على أن يردوه أول السَّنَة القادمة، وجاءت السَّنَة القادمة، فلم تجد أحدًا منهم وفى بعهده إلا واحد، وهنا يمكن أن تردد: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ لكنك فوجئت بأن ثلاثة من الأربعة الذين لم تجد التزامهم بالعهد قائمًا.. ثلاثة بدؤوا بالكلام عليك، وذَمِّك، والإساءة إليك، فزادوا على النقض فسقًا، وهنا يأتي **القبس الثاني** للآية: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢﴾.

وهذا مجرد تمثيل للتقريب، وإلا فإن عدل الله ﷻ الذي نشاهد آثاره في العالم يمنع أن يعذِّب القرى على الإخلاف في دَينٍ، بل نرى الإهلاك والتعذيب على الذنوب العامة الكبيرة.

وهنا نسأل: عرفنا السُّنَّة الحادية عشرة، وهي: سُنَّة النسيان المدمر: فتميل الأمم إلى نسيان التاريخ، وتصر على تطبيع عاداتها مع إغفال أحداثه، فما السنة الثانية عشرة؟

السُّنَّة الثانية عشرة: خيانة العهد الذي بين الإنسان وربه يقتضي الوقوع في أسر الشيطان وقبيله ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٠٢]، وهذه سُنَّة بيانية وصفية لأحوال الأمم تفيد في ترشيد نفسيات المصلحين، فهي تبيِّن للذرية الآدمية العهد الذي بين الله ﷻ وبينها، لكن الأكثر أبوا إلا نكث العهد ونقضه، بل وجدنا أكثرهم فاسقين، وكأنه يقول: فلا تحزنوا أيها المصلحون، وضَعُوا خطط إصلاح الأرض ضمن هذه الرؤية التي لا تستسلم للأحلام:

الله أكبر، يا لهذا التعبير المدهش ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ﴾! فانظر لكلمة ﴿وَجَدْنَا﴾، ولكلمة ﴿مِّنْ﴾، ولكلمة ﴿عَهْدٍۖ﴾.

فما القوة البيانية التي تصور جمال كلمة ﴿وَجَدْنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾؟

الجواب: هذه الكلمة ﴿وَجَدْنَا﴾ مشتقة من (وَجَدَ)(١) وِجْدَانًا، وأصل معناها: ألفى الشيء قائمًا محسوسًا موجودًا أمامه، فقد يكون وجودًا بالبصر نحو: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ﴾ [القصص: ١٥]، أي لقيهما موجودين يعاينهما ببصره، ومنه: العثورُ على الشيء سواء أكان مقصودًا أم لا ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ [الكهف: ٦٥]، ووَجَدْتُ طعم كذا، ووجدت صوته، ووَجَد الضالَّة والمطلوبَ أي: ظَفِر به موجودًا أمامه، وأوجده الله مطلوبَه: أظفره به، ثم قد يطلق على الشيء المعنوي تنزيلًا له منزلة المحسوس، وهو أنواع:

الأول: يقال عند قوة الشعور بالصفات: نحو: وَجَدْتُ الشِّبَع، ووجدت الحزن والسَّخط، ووجدت العقل والحزم، ومنه وجد عليه مَوْجِدَةً أي غضب وتألم، وقد يقال فيه: وجدانًا، فقد أَنْشَدَوا:

كِلَانَا رَدَّ صَاحِبَهُ بِيَأْسٍ ... عَلَى حَنَقٍ وَوِجْدَانٍ شَدِيدِ(٢)

---

(١) مقاييس اللغة (٦/ ٨٦-٨٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ٢٨٦).

(٢) هذا البيت لصخر الغي، لسان العرب (٣/ ٤٤٦).

ومن ذلك التعبير عن صبر أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، فالمدح هنا لصبره عليه السلام، ومن ذلك: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: ٦٥].

الثاني: الوجدان بالبصيرة، وفيه قوة الشعور بالمعرفة، فيعبَّر به عن التَّمكُّن من الشيء بالوجود مثل: وجدت الله عز وجل أي عرفته متيقنًا، ووجدت محمدًا صلى الله عليه وسلم نبيًّا، ويمكن أن يدخل فيه قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ﴾ [النور: ٣٩]، فقد يكون المقصود يوم القيامة عندما يلاقي الإنسان ربه عز وجل ليحكم فيه، وقد يكون المقصود ما يحدث في الدنيا من الحساب المعجل لبعض الناس، فيأخذ الله عز وجل الظالم بعد زمن، وهذا معنى: : ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي وجد حساب الله، وهذا وجود بالبصيرة كما قال يحيى بن خالد البرمكي عندما سُجن: يا بُنيَّ لَعلَّها دعوةُ مظلوم سَرَتْ بليل غَفَلنا عنها! ولم يَغْفُل اللهُ عز وجل عنها، ثم أنشأ يقول:

رُبَّ قومٍ قد غَدَوْا في نَعْمةٍ زَمَنًا والدهرُ رَيَّانٌ غَدَقْ
سَكَتَ الدَّهرُ زَمَانًا عنهمُ ثم أبكاهُمْ دَمًا حِينَ نَطَقْ![1]

أي ووجدنا حساب الله عليها في الدنيا.

بصيرة: تظهر قوة هذه الكلمة العظيمة ﴿وَجَدْنَا﴾ في أنها تبصرنا بعظيم عدل الله عز وجل، ورعايته للإنسان، فالأسلوب القرآني استعمل الإيجاد بدلًا من العلم؛ لأن الإيجاد كلمة عظيمة جدًّا توضح كمال علم الله عز وجل، وكمال عدله في الوقت ذاته؛ فإن الله عز وجل قد علم من الذي سينقض عهده معه، لكنه لم يعاقبه إلا بعد أن ينظر في عمله في الواقع.

فكأن الله عز وجل يقول: نحن نعلم أن كثيرًا منهم لا عهد له لكننا لم نحكم عليهم بالعلم بهم، بل منحناهم الفرصة بعد أن خلقناهم، فلما نبذوا كل عهدٍ، وحَقَّت عليهم العقوبة لم نعاقبهم فور

(١) تاريخ بغداد (١٤/ ١٣٦).

ذلك، بل نظرنا إلى حالهم لعلهم يدفعون عقوبة ربهم ﷻ بالاستقامة على عهدٍ من العهود، لكننا لم نجد لهم عهدًا مهما صغُر، فاستحقوا عند ذلك غضب ربهم ﷻ.

في قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ لماذا عبَّر عن نكث العهد بعدم الوجود، ولم يقل: نكثوا عهودهم؟

الجواب: كأن الله ﷻ يقول: اختبرناهم ليوفوا بعهودهم، فلم يفعلوا

حتى إذا فتشت في عقولهم لا تجد أثرًا للعهد.

حتى إذا فتشت في أحوالهم لا تجد أثرًا للعهد.

حتى إذا فتشت في أجسامهم لا تجد أثرًا للعهد.

وكذلك في نفوسهم في أفكارهم لا تجد أثرًا للعهد.. الله أكبر، يا لهذا التعبير المدهش ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾!

في قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ هل يلزم أن يجد الله ﷻ القرى ناكثة ليقيم عقوبته عليهم؟ أليس الله ﷻ يعلم كل شيء؟

الجواب: اختبر الله ﷻ إرادة الذرية الآدمية: هل تكون متحررة من القبيل الشيطاني، فتُقْبِلُ على الخير وتترك الشر.

ثم جعلها قرى، أي: حضارات مزدهرة قوية -كما هو المصطلح القرآني لكلمة قرى-، وهو سبحانه يعلم ما كان وما يكون.. يعلم حقائق العباد.. يعلم السر وأخفى لكنه يريد أن يقيم العدل.. يقيم العدل بإقامة الحجة على العالمين، فلم يُقِم الأحكام القضائية بعلمه بل أقامها بعدله.. لم يقمها وفق علمه السابق بل وفق وقوع ما يعلمه منهم، وهذا الذي سمَّاه الله ﷻ: إيجادًا لواقعهم فقال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ أي: اختبرناهم في الواقع: هل يحفظون عهد الإيمان الَّذِي عاهَدَهُمُ اللَّهُ وهم في صُلْبِ آدَمَ، إذ قالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]؟

هل يحفظون عهد الإيمان الذي أخبر به آدم عليه السلام؟

هل يحفظون عهد الخير الذي جاءت به الرسل عليهم السلام؟

إنه العهد الذي يمثل الصلة الحقيقية بالله ﷻ للنجاة والازدهار والمجد والعظمة ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ [مريم: ٨٧]، فما النتيجة؟

حدَّد الله ﷻ النتيجة فقال: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ﴾.

جمال كلمة (عَهۡدٖ) في سياق قوله تعالى: (وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ)

كلمة (عَهۡدٖ) نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ تفيد العموم، ويدخل فيها الأنواع الآتية:

١. عهد الفطرة: ما ركزه الله عز وجل في العقول من معرفة الخير والشر
٢. عهد الكتاب: ما جاء به الرسل من تفصيل لما في الفطرة
٣. عهد النداءات: النداءات الأربعة لبني آدم في سورة الأعراف
٤. عهد الالتزام: ما يلتزم به الإنسان على نفسه
٥. عهد التحذير: التحذير من الشيطان في قوله: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ﴾
٦. عهد الوصايا: الوصايا العشر في سورة الأنعام
٧. عهد الوعد: ما يلتزم به الإنسان من وعود للآخرين

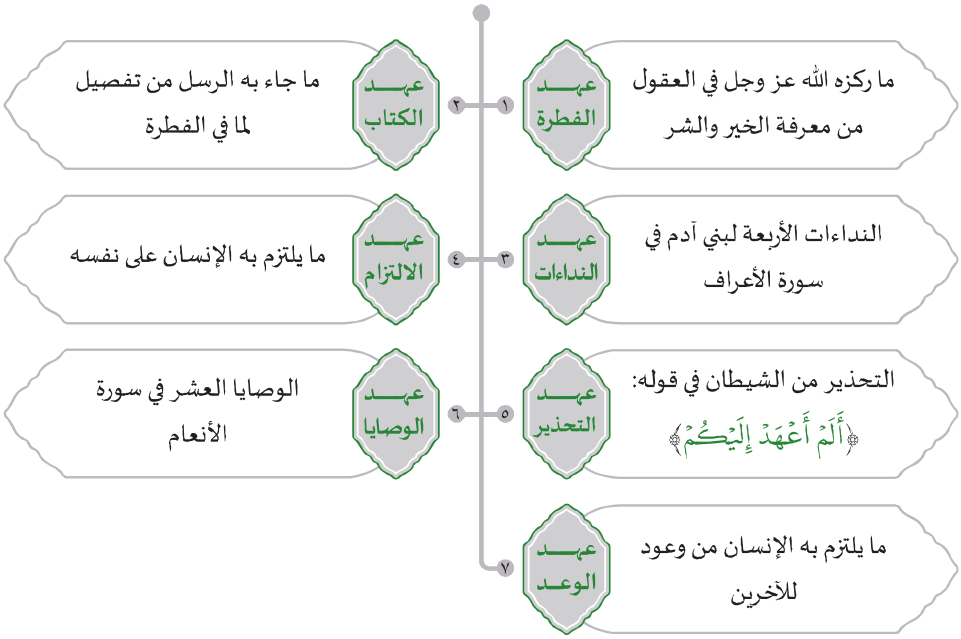

جمال كلمة ﴿عَهْدٍ﴾ في سياق قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾:

وهذا يدفعنا إلى التساؤل حول جمال كلمة ﴿عَهْدٍ﴾ في قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾؟

الجواب: العهد -كما سبق أن ذكرنا في الآية (٤٠) من سورة البقرة- هو الوَصِيّةُ الموثقة التي يجب تعاهدها، أي: استحضارها في كل وقتٍ حتى كأن الإنسان على صلةٍ بها، ويترتب عليها حقوق وواجبات تقتضي التحفظ في الأمور، ويشعر المرء عند العهد بالأمان من الغدر.

كلمة ﴿مِّنْ﴾ جاءت لتظهر عموم العهد لكل ما يمكن أن يسمى عهدًا سواء أكان عَهْدًا فِطْرِيًّا أم شَرْعِيًّا أم عُرْفِيًّا، فكلمة ﴿عَهْدٍ﴾ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ وجاءت ﴿مِّنْ﴾ لتزيدها عمومًا كَأَنَّهُ قَالَ: وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِ أُولَئِكَ الْأَقْوَامِ عَهْدًا يَفُونَ بِهِ[(١)]، وبذلك يدخل في كلمة ﴿عَهْدٍ﴾ الأنواع الآتية:

الأول: ما ركزه الله ﷻ فِي عُقُولِنَا، فجَرَت به الفطرة من معرفة الخير، ومعرفة الشر، والشعور بالقوة الغيبية القاهرة الظاهرة التي تحكم السموات والأرض، وهي قوة الله ﷻ، فهذه الفطرة ينبغي تعاهدها.

قال ابن كثير ﵀: "وَالْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ هُوَ الَّذِي جَبَلَهُمْ عَلَيْهِ وَفَطَرَهُمْ عَلَيْهِ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَصْلَابِ أَنَّهُ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَقَرُّوا بِذَلِكَ، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ، وَخَالَفُوهُ وَتَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَعَبَدُوا مَعَ اللهِ ﷻ غَيْرَهُ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ لَا مِنْ عَقْلٍ، وَلَا مِنْ شَرْعٍ، وَفِي الْفِطَرِ السَّلِيمَةِ خِلَافُ ذَلِكَ، وَجَاءَتِ الرُّسُلُ الْكِرَامُ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ[(٢)] كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ[(٣)] عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ

---

(١) ينظر. تفسير المنار (٩/ ٣٢).

(٢)قال النووي: «(حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ): أَيْ مُسْلِمِينَ، وَقِيلَ: طَاهِرِينَ مِنَ الْمَعَاصِي، وَقِيلَ: مُسْتَقِيمِينَ مُنِيبِينَ لِقَبُولِ الْهِدَايَةِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ حِينَ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ فِي الذَّرِّ، وَقَالَ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قالوا بلى». شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٩٧).

(٣) قال النووي: «(وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ) هَكَذَا هُوَ فِي نُسَخِ بِلَادِنَا :(فَاجْتَالَتْهُمْ) بِالْجِيمِ، وَكَذَا نَقَلَهُ الْقَاضِي عَنْ رِوَايَةِ الْأَكْثَرِينَ، وعن رواية الحافظ أبي علي الغساني: (فاختالتهم) بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ قَالَ: وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ وَأَوْضَحُ، أَيْ: اسْتَخَفُّوهُمْ فَذَهَبُوا بِهِمْ، وَأَزَالُوهُمْ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، وَجَالُوا مَعَهُمْ فِي الْبَاطِلِ. كَذَا فَسَّرَهُ الْهَرَوِيُّ وَآخَرُونَ. وَقَالَ شَمِرٌ: اجْتَالَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ: ذَهَبَ بِهِ، وَاجْتَالَ أَمْوَالَهُمْ: سَاقَهَا وَذَهَبَ بِهَا، قَالَ الْقَاضِي وَمَعْنَى (فاختالتهم) بِالْخَاءِ عَلَى رِوَايَةِ مَنْ رَوَاهُ أَيْ: يَحْبِسُونَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَيَصُدُّونَهُمْ عَنْهُ». شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٩٧).

عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ»[١]، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[٢]"[٣].

الثاني: العهد الذي يكون بين الرسل وأقوامهم، ويعبر عنه بالكتاب الذي جاءهم من الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا عهد يفصِّل ما أودعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الفطرة من الشعور بمجد الله وقوته وقدرته.

الثالث: من العهد الذي بين الله عَزَّوَجَلَّ وعباده: النداءات الأربع التي نادى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها الذرية الآدمية مما ذكره في أول هذه السورة: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝٢٥ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٧﴾ [الأعراف: ٢٥-٢٧]، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٦﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٦].

الرابع: الالتزام الذي يجعله الإنسان على نفسه.

الخامس: ومن العهد العظيم التحذير من الشيطان، وهذا موجود في قلب كل إنسان إلا المعاند المتبختر بعناده: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

السادس: ومن العهد الوصايا العشر التي وردت في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ

---

(١) مسلم (٢٨٦٥).

(٢) البخاري (١٣٨٥)، مسلم (٢٦٥٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٦-٤٠٧).

وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]، لقد أوصيناهم بتوحيد الله، واتباع رسله، والعمل بطاعته، واجتناب معاصيه، ونبذ عبادة الأصنام، وترك العدوان على أنفسهم وعلى الخلق وعلى الأرض.

السابع: ويَجُوزُ أنْ يُرادَ بِالعهد الوَعْدُ الَّذِي يلتزم به الإنسان مثل الذي التزم به ملأ فرعون في قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، فَإنَّ مَعْنى ذَلِكَ: إنْ أتَيْتَنا بِآيَةٍ صَدَّقْناكَ.

الله سبحانه في هذه الآية يكلمنا عن الوفاء بالعهد، فلماذا قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ ولم يقل: وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ وفاء عَهْدٍ؟

الجواب: ذهب كثرة من المفسرين إلى أن مَعْنى انْتِفاءِ وِجْدانِ العهد انْتِفاءُ الوَفاءِ بِهِ؛ لِأنَّ أصْلَ الوَعْدِ ثابِتٌ مَوْجُودٌ، ولَكِنَّهُ لَمّا كانَ تَحَقُّقُهُ لا يَظْهَرُ إلّا في المُسْتَقْبَلِ، وهو الوَفاءُ، جَعَلَ انْتِفاءَ الوَفاءِ بِمَنزِلَةِ انْتِفاءِ الوُقُوعِ، والمَعْنى عَلى تَقْدِيرِ مُضافٍ، أيْ: ما وجَدْنا لِأكْثَرِهِمْ مِن وفاءِ عَهْدٍ[1].

ويظهر لي أن التعبير القرآني له بهاءٌ وبريقٌ أخَّاذ يجعلنا نبحث عن جمال كلماته كما هي، دون حاجة للبحث عن محذوف ما دامت الضرورة غير ملجئة، فالتعبير هنا يرتفع بك ارتفاعًا سامقًا، فليس المراد: ما وجدنا من وفاء عهد، بل لم نجد العهد في ذاته.. فقد أوجدناه في قلوبهم بما أودعناه من فطرة صادقة، وأوجدناه في عقولهم بما أرسلنا إليهم من رسل، وأوجدناه في حياتهم بما أذعناه بينهم من وصايا، فلمَّا أردنا أن نكشف لكم عن نتيجة اختبارنا لهم لم نجد ذكرًا للعهد ذاته فضلًا عن أن نجد الوفاء به، وهنا تفهم بصورة تأخذ الأنفاس: لماذا يقول المجرمون من المنافقين والمرتابين في

(١) ينظر. التحرير والتنوير (٩/ ٣٣).

قبورهم عند سؤال الملكين: هاه هاه لا أدري.. سيسأله الملكان عن أربعة عهود شاعت وذاعت، وكل ذلك لا تجد أثرًا لها كأنه لم يسمعها، واسمع للحديث يصور لك ذلك:

فروى البخاري: «وَأَمَّا الْمُنَافِقُ، أَوِ الْمُرْتَابُ فَيَقُولُ لا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ»[1]، ولفظ أحمد: «وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولانِ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِى، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِى، فَيَقُولانِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِى بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِى»[2] لقد فتَّش الملكان عسى أن يجدا أثرًا لعهد الله ﷻ في نفس هذا المنافق أو المرتاب.. لم يجدا شيئًا.. هنا تشعر بقوة التصوير القرآني المدهشة لكلمة ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾.

فهمنا معنى قول الله ﷻ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾، فلماذا قال بعد ذلك: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾؟ وما وجه قوة كلمة (فاسقين) هنا؟

الجواب: في قوله: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ۝١٠٢﴾

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ الواو عاطفة، و﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة غير عاملة على قلة، ويجوز أن تكون عاملة واسمها ضمير الشأن.

و﴿وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، واللام الفارقة لِتَفْصِلَ بَيْنَ (إن) الْمُخَفَّفَة وَبَيْنَ (إِنْ) بِمَعْنَى (مَا)، و﴿لَفَٰسِقِينَ﴾: مفعول به ثان لوجدنا.

فالمعنى: وإنَّ الشأن والحديث والخبر المهم لتعرفوا عدالتنا معهم أننا وجدنا أكثرهم فاسقين.

والآن تعال ننظر في هذه الكلمة (فاسقين).

فأخبر عنهم هنا بقوله: ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾ ولم يقل: (لناكثين)؛ لأن هذه الكلمة العجيبة تصور بدقة كبيرة سبب استحقاقهم لعقوبة الله العادلة، فالْفِسْقُ: هُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الأمر الفطري الطبيعي، ونقول: فَسَقَ فلان: خرج عن نظام الفطرة الإلهية، فاشتقت هذه الكلمة من قول الْعَرَب: فَسَقَتِ

---

(١) البخاري (٧٢٨٧).

(٢) أحمد (١٨٥٣٤)، أبو داود (٤٧٥٣)، قال البيهقي رحمه الله في شعب الإيمان (١/ ٦١٢): "هذا حديث صحيح الإسناد"، وقال ابن منده في كتاب الإيمان (٢/ ٩٦٥): "هَذَا إِسْنَادٌ مُتَّصِلٌ مَشْهُورٌ".

الرُّطَبَةُ عَنْ قِشْرِهَا: إِذَا خَرَجَتْ، وهذه الكلمة من مُبْتَكَرات القرآن[١]؛ فقد قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: لَمْ يُسْمَعْ (فَاسْقٌ) قَطُّ فِي كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي شِعْرٍ وَلَا كَلَامٍ. قَالَ: وَهَذَا عَجَبٌ، هُوَ كَلَامٌ عَرَبِيٌّ وَلَمْ يَأْتِ فِي شِعْرٍ جَاهِلِيٍّ[٢].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ رَفَعَهُ قَالَ: «فَإِنَّ الْفُوَيْسِقَةَ رُبَّمَا اجْتَرَّتِ الْفَتِيلَةَ فَأَحْرَقَتْ أَهْلَ الْبَيْتِ»[٣] أي الفأرة، وكل حيوان أو حشرة مثلها. فيكون معنى: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ **أي:**

بصيرة: عندما تنقب في حالهم فإنك تجد أكثرهم خارجين عن التزام الحياة الفطرية التي خلقهم الله ﷻ عليها، والحياة الشرعية التي أمرهم الله ﷻ بها.

قال البقاعي ﷺ: ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾ "أي: خارجين عن دائرة العهد، مارقين مما أوقفهم عند الحد، عريقين في ذلك، طبق ما كنا نعلمه منهم في عالم الغيب، وما أبرزناه في عالم الشهادة إلا لنقيم عليهم به الحجة على ما يتعارفونه بينهم في مجاري عاداتهم ومدارك عقولهم"[٤].

ومن أمثلتهم القادمة التي ستجدون فيها مصداق هذا الكلام المجيد أن الله ﷻ عذَّب آل فرعون بوقوع الرجز عليهم، فقاموا يظهرون توبتهم فيقولون: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]. فرفع الله ﷻ عنهم الرجز فماذا حدث؟ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥].

كم نطلبُ اللهَ في ضرٍّ يحلُّ بنا ... فإن تولَّتْ بلايانا نَسِيناهُ
نَدْعوه في البحرِ أنْ ينجي سفينتَنا ... فإنْ رَجَعْنا إلى الشاطئ عَصَيناهُ
ونَرْكَبُ الجَوَّ في أمنٍ وفي دَعَـةٍ ... وما سَقَطْنا لأنَّ الحافظَ اللهُ

(١) يقصد بهذا المصطلح: "ما سَبقَ إليه القرآنُ من خصائص وأساليب ومعانٍ وألفاظ لم تكن معهودةً عند العرب". ينظر. مبتكرات القرآن عند الطاهر ابن عاشور (ص: ٤٩١).

(٢) ينظر. مقاييس اللغة (٥٠٢/٤)، لسان العرب (٣٠٨/١٠).

(٣) البخاري (٣٣١٦).

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور(١٧/٨).

لماذا قيَّد وجود الفسق بالأكثر في قوله: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾؟ وما الدقة المعنوية التي نجدها في هذا التعبير؟

الجواب: هذه دقة مدهشة، يبين الله ﷻ لنا بها عدله المطلق، ويظهر منها الدقة القرآنية المقسطة في وصف أحوال الأمم، وأخبارهم، فأخرج بهذا التعبير المؤمنين الموفين بالعهود من كل أمة، فأكثر الأمم تميل إلى الفسق، فهي تبصرنا أن قوى الملأ المستكبرة تكون نشطة جدًّا، فتَجُر معها جمهوًرا عظيمًا من المستضعفين الأتباع الذين ينقادون لها، فيسيطرون عليهم بثلاث وسائل:

الوسيلة الأولى: الإعلام، والوسيلة الثانية: المال، والوسيلة الثالثة: القوة، فتغيب مقاومة الإرادة الحرة لدى كثير من الأتباع، فيؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة.

ولكن كل أمة لا تتفق على الشر على وجه الإجماع، فيبقى منهم الصالحون لكنهم قليلون مستضعفون، وتنبئنا هذه الكلمة بأن الكثرة في الناس تكون فاسقة، وبحسب الواقع فإن ذلك يكون بسبب النشاط القيادي المدهش للمستكبرين.

وتشعر بأن هناك احتباكًا في الآية أو ما يشبهه، أو يمكنك أن تقول: هو مجاز بالحذف، فقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾، وكأنه يقول لنا: وقد وجدنا أقلَّ أصحابِ القرى والحضاراتِ أصحابَ عهد وفوا به، وقاموا بحقه، وما وجدنا لأكثرهم من عهد، وإن وجدنا أقلهم لمؤمنين، ووجدنا أكثرهم لفاسقين.

هذا يدعونا إلى السؤال عن العلاقة بين الفسق والكفر؟

الجواب: ذهب الراغب ﷺ إلى أن الفسق أعم من الكفر، فالفِسْقُ يقع بالقليل من الذُّنوب وبالكثير، لكن تُعُورِف فيما كان كثيرًا، وأكثر ما يقال الفَاسِقُ لمن التزم حكم الشَّرع وأقرَّ به، ثمَّ أخلَّ بجميع أحكامه أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصليّ: فَاسِقٌ، فلأنَّه أخلَّ بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة، هكذا ذهب الراغب ﷺ، ثم استدل بآيات القرآن المجيد.

وما قرَّره ﷺ صحيح، وقد أضاف قاعدة أخرى فقال: "فالفاسق أعمُّ من الكافر، والظالم أعمُّ من الفاسق"[1].

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص٦٣٧).

ويظهر لي أن الكفر يطلق على الذنوب الكبيرة سواء أكانت مخرجَة من الملة أم لا؛ إذ الأمر كما قال البخاري ﷺ: "باب كُفْرَانِ الْعَشِيرِ، وَكُفْرٍ دُونَ كُفْرٍ"[١].

فالكفر تغطية للحق، ومن تغطية الحق ما يكون كفرًا مخرجًا يساوي الشرك، ومن تغطية الحق ما لا يكون كذلك، ولكنه إن لم يكن كفرًا أكبر كان من الكبائر، والفسق خروج عن النظام الحق إلى الباطل.

وفي الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[٢]، قال الترمذي ﷺ: "ومعنى هذا الحديث: قتاله كفر ليس به كفرًا مثل الارتداد عن الإسلام...وقد روي عن ابن عباس و طاووس و عطاء وغير واحد من أهل العلم قالوا: كفر دون كفر، وفسوق دون فسوق"[٣].

وقال البيهقي ﷺ: "وَالَّذِي رُوِّينَا عَنِ الشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الأَئِمَّةِ مِنْ تَكْفِيرِ هَؤُلاَءِ الْمُبْتَدِعَةِ، فَإِنَّمَا أَرَادُوا بِهِ كُفْرًا دُونَ كُفْرٍ وَهُوَ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: "إِنَّهُ لَيْسَ بِالْكُفْرِ الَّذِي تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ، إِنَّهُ لَيْسَ بِكُفْرٍ يَنْقُلُ عَنْ مِلَّةٍ، وَلَكِنْ كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ"[٤].

وقَعَّدَ عطاء ﷺ في فَهْمِ هذه المصطلحات تقعيدًا عامًّا فقد روى المروزي ﷺ عنه قوله: "كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق"[٥].

فإن قلت: ما الأنواع التي وردت معبرة عن الفسق في القرآن المجيد؟

الجواب: وردت آيات القرآن في موضوع الفسق على ثلاثة أنحاء:

النحو الأول: آيات ذكرت الفسق على أنه كفر أكبر، كما قال الله تعالى عن إبليس: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، فلا يحتمل فعله إلا الكفر الأكبر، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩]، ففسقُهم هنا كفرٌ أكبر؛ لأنهم عادَوا جبريل عليه السلام ثم كفروا

(١) البخاري (١/ ١٥).
(٢) البخاري (٤٨) مسلم (٦٤).
(٣) سنن الترمذي، ت بشار (٤/ ٣٧٦).
(٤) السنن الكبرى للبيهقي (٨٦/٢١).
(٥) تعظيم قدر الصلاة للمروزي (٢/ ٥٢٢).

بمحمد ﷺ، وسياق الكلام عن هذا الصنف من أهل الكتاب، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧]، فإن الكلام عن الكفر الأكبر فقد تقدم ذكر ذلك عنهم في السورة في قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦].

النحو الثاني: آيات ذكرت الفسق على أنه ذنوب يقترفها المسلم، وليست كفرًا أكبر، ولكنها من كبائر الذنوب، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤] فإن الله ﷻ قال بعدها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٥].

النحو الثالث: ومنه ما يحتمل الأمرين معًا: الكفر الأكبر والكفر الأصغر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦].

وكذلك قوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥] يحتمل الأمرين، وإن كان السياق واردًا في معاداة الرسل، وهو كفر أكبر، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

ولكن مصطلح (الكفر) إذا اجتمع مع مصطلح الفسق أريد بالأول الكفر الأكبر، وبالثاني كبائر الذنوب، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾ [الحجرات: ٧].

وصلَّى الله تعالى وسلَّم على نبيّنا محمَّدٍ، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

والحمد لله ربِّ العالمين.

الفقير إلى ربِّه الغني جلَّ ذِكْرُهُ:

عبد السلام مقبل المجيدي

أستاذ القراءات والتفسير والدراسات القرآنية

كلية الشريعة/ جامعة قطر

s١٤٣٥y@gmail.com

فهرس الموضوعات

تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور/ عبد الله موسى محمد أبو المجد ٥
المحور الرابع ٩
السُّنَن الاجتماعية الكونية العامَّة التي تحكم تاريخ الذُّرية الآدمية أمام دعوات الإصلاح النبوية، وخطوات القَدَر التي تتعامل مع حركة البشر [الأعراف: ٩٤-١٠٢] ٩
المناسبة والاتصال: ٩
السُّنَّة الأولى: إرسال الرسل إلى الحضارات المختلفة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأعراف: ٩٤] ١٦
السنة الثانية: كُفْرُ الملأ المستكبرين: إذ يأْبَى الملأ المستكبرون اتباع النبيّ في كل حضارة [الأعراف: ٩٤] ١٩
السنة الثالثة: سُنَّة أخذ الكافرين -وربما من جاورهم- بالبأساء والضراء [الأعراف: ٩٤] ٢٠
السُّنَّة الرابعة: سُنَّة الإمهال وتَجَدُّدِ الرخاء: ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: ٩٥] ٣٠
السُّنَّة الخامسة: سُنَّة العفو التكاثري ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ [الأعراف: ٩٥] ٣٢
السُّنَّة السادسة: سُنَّة التفسير المنحرف: ﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف: ٩٥]. ٣٦
السُّنَّة السابعة: سُنَّة العقوبة الماحقة المستأصلة: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥] ٤٢
السُّنَّة الثامنة: سُنَّة العدل: فأهم عوامل التنمية وإنقاذ الحضارات من الأزمات والنكبات عاملان: الإيمان والتقوى، فإذا اختار الناس التكذيب جاءتهم العقوبة المستأصلة: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] ٤٦
جمال كلمات آية البركات وبلاغتها: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ﴾ ٤٦
ثلاثية مفهوم البَرَكَة ٥٧
السُّنَّة التاسعة: الأمن من مكر الله: أعظم علامات الخسارة الذاتية والحضارية: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩] ٦٩
السؤال الأول: وهو قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨]. ٦٩
السؤال الثاني: ﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨]. ٧١
السؤال الثالث: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]. ٧٤
المكر بين المحمود والمذموم: ٧٦

السُّنَّة العاشرة: تتابع الذنوب يؤدي إلى طبع القلوب: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]. ٨٧

مراحل مسخ القلوب........ ٩٩

السُّنَّة الحادية عشرة: سُنَّة النِّسيان المُدَمِّر: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]. ١١٢

دلالات ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ [الأعراف: ١٠١]........ ١٢١

السنن الإلهية التي تضمنتها آية: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾ [الأعراف: ١٠١] ١٢٨

السُّنَّة الثانية عشرة: خيانة العهد الذي بين الإنسان وربه يقتضي الوقوع في أسر الشيطان وقبيله ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]........ ١٣١

جمال كلمة ﴿عَهۡدٖ﴾ في سياق قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ﴾:........ ١٣٥

فهرس الموضوعات........ ١٤٣

للتعرف على مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية

امسح الرمز

الأستاذ الدكتور عبد السلام مقبل المجيدي

- رئيس مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية، ومؤسس مشروع تسوير السور القرآنية.
- أستاذ دكتور في قسم القرآن والسنة/كلية الشريعة/ جامعة قطر حاليًا، وجامعتي حضرموت وذمار سابقاً.
- شارك في تحكيم نحو **30** مسابقة دولية للقرآن الكريم في أنحاء متفرقة في العالم.
- أشرف وناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. في جامعات ذمار وحضرموت، وقطر وعمان.
- قدَّم عددًا من البرامج الإعلامية، والدورات العلمية والتدريبية في التفسير وعلوم القرآن في عدة دول.

بصائر المعرفة القرآنية — تسوير السور القرآنية — مفصل تفسير — سورة الأعراف — الكتاب الخامس

يَنْقُلُنَا هَذَا الْإِصْدَارُ الْخَامِسُ مِنْ سِلْسِلَةِ «الْمُفَصَّلِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَبَصَائِرِهَا» نَقْلَةً نَوْعِيَّةً مِنْ «سَرْدِ الْأَحْدَاثِ» إِلَى «تَأْصِيلِ الْقَوَانِينِ»؛ فَبَعْدَ أَنِ اسْتَعْرَضَتِ الْأَجْزَاءُ السَّابِقَةُ حَرَكَةَ الصِّرَاعِ التَّارِيخِيِّ عَبْرَ خَمْسِ دَوْرَاتٍ حَضَارِيَّةٍ، يَأْتِي هَذَا السِّفْرُ لِيُجِيبَ عَنِ السُّؤَالِ الْأَهَمِّ: مَا الْقَوَاعِدُ الْحَاكِمَةُ لِهَذِهِ الصِّرَاعَاتِ؟ وَكَيْفَ تَجْرِي أَقْدَارُ اللهِ عَلَى الْأُمَمِ؟

يُقَدِّمُ الْكِتَابُ قِرَاءَةً اسْتِقْرَائِيَّةً دَقِيقَةً لِلْآيَاتِ [٩٤-١٠٢] مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ، كَاشِفًا عَنِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سُنَّةً إِلَهِيَّةً صَارِمَةً لَا تُحَابِي أَحَدًا؛ بَدْءًا بِفَلْسَفَةِ الِابْتِلَاءِ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَمُرُورًا بِكَشْفِ أَخْطَرِ فِخَاخِ الِاسْتِدْرَاجِ الْإِلَهِيِّ الْمُتَمَثِّلِ فِي «الرَّخَاءِ الْمُطْغِي» وَ«الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللهِ»، وُصُولًا إِلَى تِبْيَانِ الْمُعَادَلَةِ الْمَفْقُودَةِ فِي اقْتِصَادِيَّاتِ الْأُمَمِ: مُعَادَلَةِ «الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى» كَشَرْطٍ وَحِيدٍ لِتَدَفُّقِ الْبَرَكَاتِ.

إِنَّهُ لَيْسَ مُجَرَّدَ تَفْسِيرٍ، بَلْ هُوَ وَثِيقَةٌ فِي «فِقْهِ السُّنَنِ» تُبَصِّرُ الْقَارِئَ بِخُطُوَاتِ الْقَدَرِ، وَتَشْرَحُ فِيزْيَائِيَّةَ «طَمْسِ الْقُلُوبِ»، وَتَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَكْمَنِ الدَّاءِ الَّذِي يُهْلِكُ الْحَضَارَاتِ؛ لِيَكُونَ بِمَثَابَةِ كَشَّافٍ ضَوْئِيٍّ لِفَهْمِ الْوَاقِعِ الْمُعَاصِرِ عَبْرَ مِرْآةِ الْقُرْآنِ وَبَصَائِرِهِ الْبَاهِرَاتِ.

جامعة قطر QATAR UNIVERSITY
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية COLLEGE OF SHARIA AND ISLAMIC STUDIES